يوميات مصاب بالأيدز

إعداد وترجمة

ممدوح الزوبي



مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

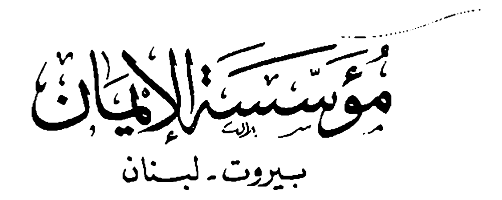
دار الرشيد
دمشق - بيروت

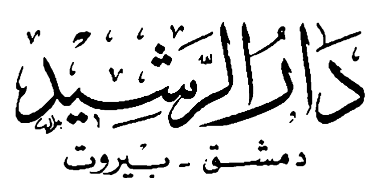


قصة واقعية

قام بترجمتها وإعدادها

ممدوح الزوبي





تنبيه:

إن إدارة دار الرشيد إذ تقدم هـذه القصـة الواقعيـة المترجمـة رأت إن تـترك بعض التعبيرات التي تعبر عن واقع حقيقي عاشه كاتب هذه اليوميـات غـير المسـلم وذلك حتى يستطيع القارئ أن يدرك الحقيقة الكاملة للموقف كما يدرك الأخطـاء الاجتماعية والبعيدة عن المفهوم الإسلامي التي أدت إلى وقوع هذا المريض في براثن هذا الداء الوبيل.

لعل كثيراً ممن ينخدعون بالغرب وبتقاليد الغرب والحرية الغربيـة يصحـون من غفلتهم ويستيقظون من أحلامهم.

الإهداء

- إلى أولئك الجنود المجهولين الذين يبذلون جهودهم بصبر وصمت للقضاء على وحش الإيدز.

- إلى روح والدي ووالدتي اللذين زرعا في نفسي العفة والطهارة .

ممدوح

تمهيد لابد منه

منذ أن وجدت البشرية على وجه الأرض، ومنذ ظهور أول بوادر الألم ولغة الآهات والمواجع ارتبطت بأمل قريب أو بعيد في الشفاء والتخلص من هذا الألم، إلا أن مرض الإيدز ذلك الوحش الكاسر الذي يفتح فاه صباح مساء، وعلى مدار الساعة، ليفتك بضحاياه ويرسم بأشباحه المخيفة القاتلة التي تحمل لون الموت الأصفر صورة أكثر قتامة للموت.. بل الموت البطيء الذي يتجرعه المصاب كل يوم أشكالاً وألواناً حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

فمريض الإيدز عزيزي القارئ يتجرع كل يوم جميع صنوف المرارة والعذاب، ويتمنى الموت لأنه لا يجد سبيلاً للحد من عذابه وآلامه النفسية والجسدية إلا من خلاله.. مريض الإيدز يعتبر الموت نعمة، والحياة بصحبة هذا الوحش الكاسر الذي لا يرحم نقمة من السماء.

إنها معالم ملحمة لن تكتمل لمواجع الإنسان الذي تحاصره الأمراض والفيروسات من كل حدب وصوب، والتي يعتبر الفيروس المسبب للإيدز أخطرها على الإطلاق وأشدها إيلاماً وقسوة للنهاية الحتمية التي يرسمها منذ ولوجه جسد ضحيته التي تهرب منه.. أو على الأقل تسعى للهروب والتخلص منه، ولا تجد مفرّاً في النهاية من احتضان آلامها والغوص في همومها وإغلاق عينيها وشبح الوحش يلاحقها.

ويزداد خطر هذا المرض عندما نعرف أن العلم والطب حتى الآن يبدوان عاجزين عن إيجاد دواء يشفي الضحايا أو لقاح يحصن الأصحاء من مخاطره.. فقد بلغ

عـدد المصـابين بهـذا المـرض منـذ اكتشـافه لأول مـرة في عـام /١٩٨١/ في الولايـات المتحدة الأمريكية وفرنسا حوالي عشرين مليون مصاب، منهم من قضى نحبـه، ومنهـم من ينتظر، ويتوقع أن يصل عدد المصابين به مع مطلع القرن القـادم إلى أربعـين مليـون مصاب.

وتذكر الدراسات أن عدد الذين صرعهم الإيدز حتى الآن، يبلغ حوالي خمسة ملايين إنسان، كما يتوقع أن يرتفع عدد الذين يصابون بالمرض يوميـاً مـن ستة آلاف إنسان إلى حوالي /١٢/ ألفاً.

وخطورة الإيدز متعددة الوجوه والأشكال، لكن أسوأها هو عدم التمكن من إيجاد دواء له، أو لقاح لتحصين الأصحاء، إضافة إلى أن المصاب بالفيروس لا يمكن أن يعرف بمرضه، بل إنه يعتقـد أنـه سـوي سـليم، لفـترة طويلـة تمتـد مـن لحظـة التقاطـه للفيروس لأشهر أو سنوات يكون قادراً خلالها على نقل العدوى إلى الأصحاء.

ومـرض الإيـدز كذلـك ليـس مرضـاً واحـداً بـل بوابـة لمجموعـة كبـيرة مـن الأمـراض، حيـث يقضـي فيروسـه علـى مناعـة الإنسـان ويجعلـه مرتعـاً لجميـع أنـواع الفيروسات، وبالتالي لعدد كبير من الأمراض الخطيرة التي تكتسب صفـة الديمومـة مـن مـرض الإيـدز بحيـث لا تغـادر جسـد المصـاب إلا لتبـدأ بعدهـا مرحلـة السـرطانات والإنتانات في جميع أنحاء الجسد.

وتتلخص طبيعة فيروس الإيدز في إمكانيته علـى الاندمـاج مـع خلايـا الجسـم الدفاعية بعد دخوله إلى دم المصاب، بحيث يـأخذ شـكلها، ويبقـى سـاكناً فيهـا لفـترة

طويلة ثم يتكاثر بشكل كبير وسريع، فيفجر الخلية، ويشل فاعلية باقي الخلايا التي لم يدخلها بفعل المناعة التي يطلقها الدم.

والمسألة الأخطر ـ فيما يتعلق بالإيدز ـ تعود إلى استحالة اكتشاف الفيروس مخبرياً لدى أي مصاب إلا بعد انقضاء ستة أشهر على بداية التقاطه على الأقل، وهذا ما يسمى بفترة الصمت المخبري، لذلك يفترض بالإنسان توخي الدقة والحذر والوقاية.

إن الدراسات التي أجريت حول المرض أكدت أن الشذوذ الجنسي والدعارة والممارسات الجنسية غير الشرعية بشكل عام مسؤولة عن أكثر من ٨٠٪ من حالات مرض الإيدز في العالم، ويأتي في المرتبة الثانية بنسبة أقل موضوع تعاطي المخدرات بالحقن، وفي المرتبة الثالثة وبدرجة قليلة جداً تأتي عمليات نقل الدم التي لا تخضع للمراقبة الصارمة.

وإذا كانت تلك بعض معالم الصورة القاتمة، فإن الاقتراب من تفاصيلها يزيدنا خوفاً ورعباً، ويكمن في إحجام نسبة كبيرة من المصابين بالإيدز عن الإبلاغ عن حالاتهم، وخاصة المومسات والشاذين جنسياً، مما يجعلهم بؤرة متنقلة لانتشار المرض.

وإذا كان الإيدز يرحب باصطحاب ضحاياه في قطار الموت البطيء الذي يجره، فإنه يفضل العناصر الشابة، من سن العشرين إلى التاسعة والأربعين عاماً، لتصبح الكارثة ذات أبعاد اقتصادية واجتماعية مدمرة.. وما يزيد من حرج هذه الصورة ـ وخاصة في إفريقية ـ التي لا تملك دولها وحكوماتها الإمكانيات اللازمة لمحاصرة المرض الذي انتشر فيها بشكل مريع ـ هو أن حوالي ثلث النساء الحوامل المترددات على

عيادات الحوامل مصابات بفيروس نقص المناعة، ونتيجة لذلك فإن منظمة الصحة العالمية تتوقع ولادة ما يصل إلى عشرة ملايين طفل بعدوى الفيروس خلا ل العامين /١٩٩٦ - ١٩٩٧/.

وقد تسلط الإيدز بقوة على تجمعات البغايا وبيوت الدعارة في آسيا وإفريقيا بشكل خاص، أما ضحايا اللواطة وإدمان المخدرات والشذوذ الجنسي، فيرفعون راية أوربا الغربية وأمريكا الشمالية في قائمة ضحايا الإيدز والذين يلاحظ أن معظمهم من الذكور.

وعلى خارطة تحاصرها أوجاع الإيدز.. طاعون القرن العشرين الذي وضع فيروساته القاتلة في أجساد عشرين مليوناً من أبناء البشرية يلوح بكوارثه المعدية للتهديد برفع ضحاياه إلى حوالي أربعين مليوناً حسب بعض الدراسات، وخمسين مليوناً حسب بعضها الآخر مع بدء القرن الواحد والعشرين.

وفي معامل محاصرة الموت القادم، يقفز السؤال الهام، هل سينجح علماء الأرض في محاصرة طاعون هذا القرن؟ وماذا أعدت البشرية لترويض الفيروس الثائر سواء بالوقاية أو بالعلاج؟

إن منظمة الصحة العالمية تؤكد في هذا الصدد أن أطباء العالم وخبراءه ومعامله لم تنجح في التوصل إلى مصل واق من المرض على الرغم من أن فيروس الإيدز من أضعف الفيروسات وأسهلها قتلا، لكن أسباب هذا الفشل تعود إلى قدرة فيروس الإيدز على التنكر والتخفي في مواصفات الخلية البشرية، ليظل قنبلة قابلة للانفجار في أي لحظة، فيتولد من انفجاراته لهيب لا تسهل السيطرة عليه؛ والأمر المثير في الأوساط

الطبية أن هذا الفيروس لم ينجح في زيادة ضحاياه فحسب، وإنما نجح وبقـوة في زيـادة أفراد عائلته من القتلة إلى ثمانية أنـواع فيروسية، محافظاً بذلـك علـى تكـاثره وتناسـلة وتنوعه.

وبالرغم من خطورة هذا المرض التي لا تحدها حدود إلا أن الأمر يختلف كثيرا بالنسبة لبلدان البحر الأبيض المتوسط، والتي تقع معظم البلدان العربية والإسلامية علـى خارطتها، حيـث تتحكـم السـلوكيات الدينيـة، بمـا فيهـا مـن التزام وعفـة، في ضبـط معدلات التزايد العالمي تؤكد أن الوضـع الوبـائي للمـرض قـد شـهد تغـيراً كبـيراً منـذ اكتشاف الحالات الأولى.

ففي دولة مثل مصر، ومنذ اكتشاف الحالة الأولى فيها في عام /١٩٨٤/ وبعد مرور حوالي /١٢/ عاماً لم تتجاوز حالات الإصابـة سـوى /٦٠٥/ حـالات، /٣٨٥/ منها من المصريين فقط، وذلك للدور الكبير الذي تلعبه تعاليم الدين الإسـلامي القويـم التي تحرم العلاقات الجنسية غير الشرعية. أي خارج إطار الزواج. تماماً كما تحرم جميع أنواع الممارسات الجنسية الشاذة وتعاطي المخدرات بأنواعها، وذلك إضافة إلى الـدور الذي تلعبه مراكز الترصد الوبائي وتشديد إجراءات فحص الدم للمتبرعين.

وفي سورية لا يتجاوز عدد المصابين /١٢١/ مصاباً، ويعود أمر انخفـاض هـذا العدد إلى الأسباب التي ذكرناها عن مصر إضافـة إلى حمـلات التقصـي الـتي تقـوم بهـا دائماً بعثات من وزارة الصحة، مما يجعل الإيدز فيها حالة نادرة.

وما ينطبق على سورية ومصر ينطبق تقريباً على جميع البلدان العربية والإسلامية ومجتمعاتها، حيث يعتبر الدين الإسلامي اللقاح الواقي الوحيد من هذا المرض.

إن قلة الإصابات في البلدان العربية والإسلامية دفعت خبراء منظمة الصحة العالمية إلى التأكيد على أن مستقبل المنطقة العربية بشكل خاص، والبلدان الإسلامية بشكل عام، غير محفوف بالمخاطر الناتجة عن الإيدز، وأن العفة والالتزام بالعلاقات الجنسية الطبيعية والشرعية، ضمن إطار مؤسسة الزواج، خير ضمان لأجيال لا يلتهم مستقبلها شبح الإيدز ومخاوفه.

وعلى الرغم من استرسالنا في إيراد ما تعلق بمرض الإيدز من خلال التمهيد إلا أنه جاء مختصراً؛ لأن التفاصيل ليست موضوع كتابنا هذا.. إنما يتركز موضوعه على إبراز ما يعانيه مريض الإيدز منذ اللحظة التي يعلم فيها بإصابته، وحتى اللحظة التي يفارق فيها الحياة، متأثراً بالمرض القاتل من خلال أوراق سميناها (يوميات مصاب بالإيدز) والتي كتبها أحد المرضى واصفاً تفاصيل رحلته المأساة في مصاحبة المرض.

وقد وقعت هذه الأوراق في يدي فعكفت على ترجمتها وإخراجها بالشكل الذي بين يديك عزيزي القارئ، آملاً أن تؤدي الدور المطلوب منها في إطار الجهود المبذولة على مختلف المستويات لمحاصرة الوحش الكاسر الذي يتربص بالبشرية شراً.

ولابد من التنويه بأننا لم نقصد تشويه قيم وأخلاق وعادات بعض الشعوب والمجتمعات وخاصة ذلك المجتمع الذي عاش مريض الإيدز صاحب هذه اليوميات بين

ظهرانيه، وإنما أوردنا كـل ذلـك مـن بـاب الأمانـة العلميـة مـن جهـة، ولإبـراز بعـض الأسباب الاجتماعية الكامنة وراء تفشي هذا الوباء كما يراها حامله.

والله ولي التوفيق

ممدوح الزوبي

الكلمة القذيفة

لا شك أن هذا اليوم هو الأسوأ في حياتي، لأنه أهم فصل في فصولها.. حيث فقدت فيه الأمل واسودت الدنيا في عيني، واكتست لوناً قاتماً مظلماً، وأحسست بأن حياتي دون جدوى.. بل أصبحت دون جدوى فعلاً.. فقد ضاع كل ما فيها هباء منثوراً بعد كلمة واحدة لفظها الطبيب.. (للأسف)..

لكن على ماذا تأسف يا دكتور؟.. أتأسف لذنب لم تقترفه؟ أم لخطأ سقط فيه مستهتر مثلي، وسيدفع ثمنه غالياً من سعادته وأمله وحياته؟

لقد ضاع الأمل! وما أضيق هذه الدنيا دون أملٍ إنها فعلاً ضيقة.. فهي تضغط على قلبي وتكتم أنفاسي.. وتضيق وتضيق حتى لتكاد تصبح زنزانة لا تتجاوز مساحتها مساحة هذا الجسد الذي أشغله والذي دفعته بخطئي واستهتاري دفعاً نحو الفناء...

يا إلهي أي ألم يعتصرني.. وأي دوامة تلك التي سقطت فيها دون سابق إنذار.. أحس وكأني في دوران مستمر حول نفسي فأشعر بالغثيان.. أشعر بحاجة شديدة للتقيؤ، وأحاول لكن دون جدوى، فلم يدخل معدتي طعام منذ الأمس، سوى فنجان القهوة الذي شربته على عجل صباح اليوم لأركض وراء أمل زائف.. ارتبط بكلمة.. ثم تلاشى بكلمة.. للأسف.. إنها الكلمة الأكثر قسوة من صخور الأرض بالنسبة لي، وأكثر مضاء من سيوف الدنيا.. وأكثر إحراقاً من نار جهنم..

للأسف.. وأي أسف هذا؟.. فقد انتهيت، سواء قلتها أم لم تقلها يا دكتور..
للأسف هذه الكلمة الصغيرة، ليست هي التي أنهت حياتي، إنما كانت البوابة التي دخلت منها النهاية إلى حياتي، بعد أن طردت الأمل منها.. ووضعت حداً لسعادتي ونحرت طموحاتي الكبيرة وجعلتني أزهد في هذه الدنيا..
آه.. ما هذا؟ الذي أقول؟

فما هو ذنب هذه الكلمة؟ إنها كلمة كجميع كلمات القاموس.. تعبر عن دواخل شخص ما.. كلمة تعكس مشاعر إنسان حمل في دواخله قسطاً من الآلام التي غلفها بهذه الكلمة وأدخلها ببساطة إلى فؤادي الذي كان لساعات مضت مفعماً بالحيوية.. مفعماً بحب الحياة ومباهج هذه الدنيا الزائلة.

وأعود ثانية إلى التساؤل: ما هو ذنب هذه الكلمة؟
لا ذنب لها بالتأكيد، بالرغم من أنها كانت المفصل الحاسم بالنسبة لي.. لا ذنب لها، ولا ذنب لذلك الإنسان الذي يشهد يومياً العديد من الحالات المشابهة لحالتي حتى اعتاد لفظها في ظروف مشابهة لأناس غاصوا في حياة بهيمية، فأشبعوا الجسد من اللذائذ.. أشبعوا النفس مما لذ وطاب في هذه الدنيا، دون النظر إلى العواقب الوخيمة.

لقد كانت (للأسف) سهلة اللفظ على هذا الإنسان.. قالها و لم يلتفت وراءه ليرى ردة فعلي على الكلمة القذيفة التي مزقتني وجعلت أشلائي تتفجر في داخلي.
أنتبه من استرسالي.. وأستفيق من ضياعي، لأجد نفسي في طريق مخالف لطريق المنزل، وأتساءل كيف وصلت إلى هنا؟.. لكن لماذا أذهب إلى المنزل لأزفّ لهم

البشرى؟.. بشرى الخبر الفاجع الذي سيودي بحياة ابنهم الوحيد؟.. وما ذنبهم حتى يتألموا ويشاركوني رحلة الشقاء هذه؟!!

يعاودني الشعور بالغثيان والرغبة بالتقيؤ.. ولا أجد في معدتي ما أتقيؤه. يبدو أن الجوع قد بدأ ينهك قواي.. لكن لماذا آكل؟.. لماذا أتناول الطعام؟.. ألأستمر في الرحلة المشؤومة نحو الأبدية بخطى وئيدة مصحوبة بالآلام التي تمزقني؟!! أم لأجعل مَن حولي ينخرط في رحلة جنائزية لا تنتهي إلا بنهايتي التي تبدو بعيدة المنال؟!!

آه.. كم أتمنى أن تنتهي حياتي هذه اللحظة.. فأدفن معي هذا الكم الهائل من الآلام!! لكن حتى الموت أصبح أمنية بعيدة المنال.. لكن لماذا بعيدة المنال؟.. ألا أستطيع أن أرمي بنفسي تحت عجلات سيارة مسرعة في هذا الشارع..؟ أو أرمي بنفسي من قمة هذا الجبل العالي فأضع حداً لهذه الرحلة الفاجعة؟!

لكن ما الذي أتى بي إلى هذا الجبل؟.. أكاد أجنّ.. أكاد أفقد هذا العقل الذي لم أستخدمه في حياتي على الوجه الأمثل... حتى في هذه اللحظات الحرجة التي لم يستطع هذا العقل أن يسعفني فيها ويجد لي فكرة مناسبة من شأنها أن تضع حدا لآلامي.. فلماذا لا أفقده؟ فقد يكون في فقدانه بعض الراحة.. لماذا لا أجن في هذه اللحظة فتنتفي مسؤوليتي عما قمت به من آثام، أو ما سأقوم به في ما بقي لي من أيام سوداء داكنة بلون جهنم.

يا رب السماوات والأرض، لا أدري إن كان الأمل باق.. يا رب السماوات والأرض، لماذا وضعتَ فينا هذه الغرائز الحيوانية التي لم يتمكن أبونا آدم من إشباعها، فكانت يوماً سبباً في إخراجه من نعيم الخلد إلى جحيم هذه الدنيا؟!

ما هذه الغريزة التي تجعل الإخوة يقتل بعضهم بعضاً، فكـانت السـبب المباشـر لأول جريمة في التاريخ عندما قتل ابن آدم قابيل أخاه هابيل.. وتجعل الأصدقاء يعضون أعراض بعضهم كالكلاب المسعورة.. بل تجعل الإنسان يرمي بنفسه إلى الهاويـة.. نعـم إلى الهاوية.

رباه كيف لم ترد هذه الخواطر إلى رأسي من قبل؟.. ألا يعتبر ذلـك انتحـاراً؟ فقد جلبت إلى نفسي هذه الكارثة.. جلبت لنفسي كلمة (للأسف) التي كانت أقسـى من قذيفة فجرت داخلي.. وجعلت حياتي تسير في طريق النهاية.

كانت التساؤلات تنهمر كانهمار المطر، وكنت أبكي بدموع حارة وقلب متضرع.. وكان الموت الذي يرفرف بأجنحته حولي هو المسيطر على جميع جوارحي فيما كانت نصائح أمي تبرق في داخلي بوميض، سرعان ما يخبو، لتعود فكرة الموت تنخر في زوايا روحي المنهارة.

الذكريات المؤلمة

تناولت مفاتيحي من جيبي بحركة آلية، وما كدت ألج إلى الداخل حتى هبت أمي متلهفة إليّ، وعندما لاحظت الألم المتقاطر من عيني، والحزن الذي يكسو وجهي، عقدت لسانها الدهشة، وأخذت بيدي الاثنتين، وأجلستني على أقرب كرسي في الصالون.

لم أر أمي في حياتي بمثل هذا الإلحاح، فقد كنت أشعر بأسئلتها وكأنها مطارق تكاد تحطم رأسي.. أين كنت؟.. وماذا حصل لك؟.. ولماذا تأخرت؟.. وما هذا الحزن الذي يكاد يقفز من عينيك؟.. إضافة إلى العديد من الأسئلة التي لم تستطع ذاكرتي المشتتة وعقلي الضائع في متاهات المأساة استيعابها أو التقاطها.

رباه.. بماذا سأجيبها؟ فلا شك أني سأقتلها لو صارحتها بالحقيقة، أو على الأقل سأنتزع قلبها الذي يكن لي حباً لا تسعه الأرض و السماء، وصرخت أمي راجية أن أجيبها..

سحبت الكلمات من فمي سحباً، لتخرج باردة كالثلج.. لا شيء يا أمي.. لا شيء يستحق الذكر.. إني متعب قليلاً ولا رغبة لدي بالحديث.

كانت أمي قد اعتادت تأخري.. لا بل اعتادت استهتاري وحياتي الصاخبة التي أعيشها بعيداً عن المنزل حيناً.. وفيه أحياناً.. وكانت تغض الطرف عن ممارساتي الخاطئة حيناً، وتؤنبني برقة ولطف أحياناً كثيرة.

إني محتاج إلى الراحة يا أمي، سأدخل إلى غرفتي لأنام قليلاً.. دخلت إلى غرفتي والصور تتداعى في مخيلتي.. صور الحياة المستهترة التي عشتها، وكنت أبحث خلالها عن المتعة أيا كان شكلها ومصدرها.. وتتوضح صورة أمي عندما دخلت مرة إلى غرفتي ووجدتني مع ثلة من رفاق السوء، نتبادل حقن المخدر الوريدية.. وأذكر أنها نادتني إلى الخارج وبدأت بمحاضرة وعظ على مسامعي، لم أفقه منها شيئاً.. فقد كان المخدر يسري في عروقي، وقد أخذ بلبي، و لم أعد أعي ما يدور حولي، لكني طمأنتها بكلماتي المعسولة التي كثيراً ما كنت أسكبها على مسامعها حين ألحظ بوادر غضب في عينيها.. وأذكر أني قلت لها كاذبا في ذلك الوقت:

ـ لا تقلقي يا أمي فأنا لا أتعاطى المخدر.

ـ والذي رأيته الآن ما معناه؟

ـ إن رفاقي هم من يتعاطونه وليس أنا..

وتظاهرت أمي بتصديق كلامي، ورجتني بألا أتعاطى هذه السموم كي لا أدمنها.. كما رجتني بقطع أي علاقة تربطني بهؤلاء الرفاق.. ولكن هيهات فقد كان هذا السم متمكناً مني بحيث لا أستطيع الابتعاد عنه، لكني وعدتها بأن أقطع علاقتي بهؤلاء الأصحاب.. و لم أفعل بل تماديت أكثر حتى تعدت علاقتنا جلسات تعاطي المخدر إلى جلسات جنسية ماجنة.

وازدادت صور حياتي المستهترة تداعياً في مخيلتي، وكأن هذه المخيلة أصبحت شاشة تعكس كل ما مر في حياتي من مساوئ وذنوب اقترفتها في لحظات الضياع التي عشتها تحت تأثير المخدرات.

وتبرز جلية صورة أمي، عندما عادت مبكرة من بيت جدي في القرية القريبة، على غير عادتها، لتجدني مع رفاقي عراة وقد اختلى كل شاب بفتاة اختارها ليمارس الجنس معها، ويشبع غرائزه الحيوانية.. حينها ثارت أمي للمرة الأولى في حياتها ومنعتني من إدخال الفتيات إلى المنزل.

ورضخت آنذاك لهذا القرار الذي اعتبرته مجحفاً بحق شاب يبحث عن المتعة في مجتمع يبيحها.. رضخت مكرهاً؛ بعد أن هددتني بإخبار والدي عن موضوع إدماني على المخدرات[1] خوفاً من أن يمنع والدي عني المصروف حيث لن أجد حينها مورداً آخر لشراء ما أحتاجه من المخدر.

واطمأنت أمي، بعد أن امتنعتُ فعلاً عن مصاحبة الفتيات والنساء أو إدخالهن إلى المنزل.. لكنها لم تر أنها وجهت حياتي إلى طريق أكثر خطورة.. ألا وهو طريق الشذوذ الجنسي، وخاصة بعد أن تمادت أمي في معاقبتي، وخفضت مصروفي إلى حوالي النصف، فكان لابد لي من إيجاد سبيل آخر لتأمين ثمن المخدر الذي أتعاطاه!!

وتتجلى الصور بوضوح أكثر على شاشة مخيلتي، ليظهر "ريمون" الفتى المخنث الذي يتعاطى المخدرات ويتاجر بها.. يظهر وهو يتعرى أمامي في لحظة كنت أحس

---

[1] لاحظ أن التهديد الذي أخافه هو من جهة المخدرات لا من جهة ممارسة الجنس التي يعتبرها المجتمع الغربي أمراً مباحاً، الأمر الذي ولد فيه الفساد وشر الأمراض.

فيها بحاجة ماسة إلى جرعة من المخدر، ويشير لي إلى مؤخرته، داعياً إياي إلى ممارسة اللواطة معه!!

كنا في البيت حينها وحدنا.. وكانت الظروف شبه مناسبة، بعد سفر أمي وأبي، لقضاء عطلة الصيف في بيت جدي.. وتحت وطأة الحاجة الملحة إلى المخدر وجدت نفسي موافقاً، شرط أن يمنحني جرعة المخدر قبل الممارسة.. ووافق على الفور، وناولني المخدر ثم انحنى متكئاً إلى طاولة أمامه!!

وأحسست بمتعة التجربة.. ووجدت فيها بديلاً عن ممارسة العادة السرية التي أدمنتها في أعقاب قرار أمي.. ويبدو أن "ريمون" قد فهم ما يدور في خلدي، فوعدني بالمجيء إلي في اليوم التالي، لإعطائي ما أحتاجه من السموم البيضاء.

وجاء "ريمون" في اليوم التالي.. وفور وصوله خلع سرواله.. ثم تلاه بقميصه، حتى أصبح عارياً تماماً، واستلقى على سريري، ودعاني إلى التعري، ولم أستطع لذلك رفضاً، لسببين: أولهما وأهمهما جرعة المخدر التي سأحصل عليها، ثانيهما: المتعة التي أحسست بها في الأمس، وحصلت على جرعة المخدر في النهاية.

وفي يوم من الأيام، كنت حينها أمارس اللواطة مع "ريمون" أحسست أن فيه شيئاً من رجولة، وخاصة بعد أن حاول أن يمارس هو معي.. ورفضت بشدة بادئ الأمر.. وهددني مرة أخرى بالمخدر.. فتمسكت بموقفي، مظهراً عدم الاكتراث، فهددني بإفشاء أمر إدماني إلى والدي، حيث كان بخبثه يدرك تماماً مقدار المقت الذي يكنه والدي للمخدرات والشذوذ.

ورضخت للأمر.. وكان فاحشاً.. فقد مارس علي كل ما في نفسه من شذوذ وسادية، وأوضاع لا أدري من أين تعلمها، لكن ليس غريباً على شاب مخنث كريمون مارس اللواطة سلباً وإيجاباً مع العديد من الرجال، أو بالأحرى أشباه الرجال.

وبدأ الملل يغزو قلب "ريمون" مني، وحتى أنا كنت أشعر معه بالقرف والتقزز، وخاصة عندما كان يرغمني على الانحناء له. لكني كنت أحتمله على مضض تحت ضغط حاجتي للمخدر، بالرغم من أنه أخذ يقلل الكمية التي كان يعطيني إياها في أعقاب كل حفلة شذوذ ومجون نقيمها سوية.

وفي النهاية قرر الابتعاد عني، ليبحث عن شاب آخر، فيمارس معه اللواطة، ويبرز ما في نفسه من شذوذ وسادية.

وبدأت الحاجة إلى المخدر تضغط علي، خاصة وأن مصروفي الذي كنت أحصل عليه من والدي لم يعد يكفي لسد هذه الحاجة.. وفكرت بالسرقة.. ونفذت الفكرة فقد سرقت بعضاً من نقود أمي أولاً. و لم تكتشف الأمر في البداية، لكن ومع تكرار السرقة تنبهت، فاتهمت الخادمة التي كانت تزورنا كل صباح لتنظيف المنزل مقابل أجر معين وترحل على الفور.. وطردت أمي الخادمة شر طردة.

وحولت مساري بعد ذلك إلى نقود أبي، فكنت أسرق منها ما أحتاجه من مال لشراء المخدر.. وتنبه والدي أيضاً وبدأ يعتمد الشيكات في تعاملاته المالية اليومية.. لكنه لم يشك بي مطلقاً، فقد كان يظن في المرات القليلة التي سرقته فيها بأنه قد أضاع النقود.

وبدأت أتوجه إلى خارج المنزل، لأسطو على السيارات الواقفة في الشوارع، وأسرق أجهزة التسجيل منها، أو أي شيء أجده فيها قابل للبيع فأبيعه، وأشتري بثمنه المخدر.

وجاء اليوم الذي غير مجرى حياتي.. وقلبها رأساً على عقب.. حيث التقيت صدفة بأحد الزملاء القدامى، وأخبرني بأن "ريمون".. الشاب المخنث الذي كنت أرتبط معه بعلاقة شاذة، مصاب بمرض الإيدز، وهو راقد في المشفى حالياً ينتظر لحظة النهاية.. طار صوابي وكدت أجن! وتوجهت لتوّي إلى مخبر قريب وطلبت إخضاعي لتحليل كشف الإيدز. وبعد أن أخذوا عينة من دمي عدت أدراجي إلى المنزل.

حاولت جاهداً أن أنام تلك الليلة، لكن دون جدوى.. فقد كنت أعيش مخاضاً مؤلماً، قد يغير مجرى حياتي، وكنت شبه متأكد من أني مصاب، لكني أعلل نفسي بالأمل والرجاء الكاذب.

لا أدري كيف أمضيت ليلتي.. فقد كانت سوداء حالكة السواد.. إلا أنها لم تخل من أمل قتلته الكلمة القذيفة التي أطلقها الطبيب في وجهي (للأسف).. الكلمة التي قضت على أي بصيص من الأمل كان إلى لحظات قليلة قبل تفوهه بها يشع في بعض جوانب نفسي، وجعلت قلبي كئيباً يسوده سواد قاتم يرتع الموت في جوانبه.. الموت الحتمي القادم كثمن باهظ لنزوة ألمت بي.

لقاء "ميشيل" و "جانيت"

عندما استيقظت هذا الصباح، كنت أشعر برغبة شديدة في تناول جرعة من المخدر.. بل أحسست أني محتاج إلى المخدر. نهضت متكاسلاً وبحثت بين ثيابي لأجد قليلاً منه، فتناولته وعدت إلى سريري.

وتذكرت "ريمون" الذي كان يسد لي حاجتي من المخدر بثمن باهظ دفعته من كرامتي وصحتي.. لكن "ريمون" مات.. مات بالمرض نفسه الذي ارتبط مصيري به، والذي يتوثب للفتك بي في أية لحظة. ومما زاد الطين بلة أن الرجل الذي كان يزودني بحاجتي من المخدر، بعد أن قطعت علاقتي "بريمون" قد هجر المنطقة أيضاً.. لعله مات هو أيضاً بمرض الإيدز، لكني وجدت نفسي مرغماً على استبدال المخدر ببعض الأدوية المهدئة وخاصة عقار (ليبريون) المتوافر في الصيدليات.

وفي أحد الأيام عرجت على الحديقة المجاورة للجامعة التي اعتدت ارتيادها مع زملائي، ودخلت حانتها، وطلبت كأساً من الويسكي.. شربته وخرجت أتسكع في الحديقة.. وعندما شعرت بشيء من التعب لجأت إلى أقرب مقعد، وجلست عليه، وبدأت الذكريات الأليمة تتقاطر إلى مخيلتي..

آه يا إلهي.. ماذا سأفعل بانتظار اللحظة الحاسمة.. آه لو لم أتحدث إلى أمي بالهاتف لشعرت بالقلق لتأخري.. يبدو أن الحديقة تزدحم بالزوار، فالوقت ملائم للنزهات، ونحن مع مطلع فصل الصيف..

ألتفت إلى صوت ناعم يتحدث إلي..

- هل أستطيع أن أجلس إلى جانبك؟

كانت شابة تقاربني سناً. وأعتقد أنها في بدايات العقد الثالث من عمرها.. بشوشة تشع الحيوية من وجهها الجميل الناصع البياض.. كان شعرها الأشقر الطويل يتطاير بفعل نسمات الهواء..

- نعم.. نعم.. تفضلي..

تبدو واثقة من نفسها وجمالها الأخاذ.. كما تبدو أنها طالبة في الجامعة، فهي تحمل كتباً وكراريس.

- اعذرني فالحديقة مزدحمة.. و لم أجد مكاناً فارغاً إلا بجانبك.

- لا بأس.. لا بأس.. فالمقعد ليس ملكي..

وجلست الفتاة إلى جانبي.. وهبت نسمة حملت رائحة عطرها إلى أنفي، فأشعرتني بشيء من الارتياح.. وجعلت الذكريات تطوف في مخيلتي.. فتذكرت "فرانسواز".. صديقتي الجميلة التي أحببتها قبل أن تمنعني أمي من إدخال الفتيات إلى المنزل.. وقبل أن يجبرني "ريمون" على ممارسة الشذوذ معه.. وقبل أن يصل الفيروس القاتل إلى عروقي.

ترى ماذا حدث معها الآن؟.. هل أحبت شاباً آخر؟ أم تزوجت؟ فمنذ تلك الفترة لم أسمع شيئاً من أخبارها.. و لم أجرؤ حتى على الاتصال بها أو السؤال عنها.. فلماذا أتصل؟ ألأريها حالة الشاب الذي أحبته يوماً، وكان حينها يشع حيوية

ونشاطاً، وما آل إليه من ذبول واصفرار بفعل المرض المخزي؟ أم لأطلعها على حياة الشذوذ المقززة التي عشتها بفعل تأثير المخدر؟

آه.. آه يا "فرانسواز".. أيتها الصبية المرحة المتفائلة أبداً.. غير المبالية بمن حولها.. تفعل ما تشاء ثقة بنفسها ونضجها ووعيها لتصرفاتها!!!

ترى كيف سيكون وقع الخبر عليها لو علمت؟ هل تشفق علي؟ أم ستنبذني وتدير ظهرها كما فعلت الأقدار وأدارت ظهرها لي؟

ـ هل أنت بخير يا سيد؟

انتبهت على صوت الصبية الجالسة بجانبي تسألني..

ـ آه.. نعم.. نعم.. أنا بخير

ـ يبدو عليك الحزن الشديد.. هل تمر بمحنة؟

ـ من منا لا يمر بمحنة؟.. لكن تختلف محنة هذا عن ذاك.. فالحياة غالباً ما تحمل لنا في ثناياها المحن والآلام.

ـ أنا أيضاً أمر بمحنة.. فقد ظهرت نتيجة الامتحان اليوم. وسكتت قليلاً ثم أردفت

ـ ورسبت..

قلت في نفسي

ليتني أمر بنفس المحنــة الـتي تمرين بهـا يـا آنسـة.. آه لـو تعلمـين مـدى خطـورة محنـتي وعمقها.. ليتني لم أنجح في الثانوية العامة، و لم أدخل الجامعة، و لم أتعرف على "ريمون" وأصدقائه الذين رموا بي في متاهات الضياع..

وانتبهت ثانية على صوت الفتاة التي أردفت تقول:

ـ لكن أعتقد بأني سأتجاوز هذه المحنة.. بل سأعوض رسوبي بالنجاح في العام القادم..

وأضافت متسائلة..

ـ يبدو أن صدمة مؤلمة حدثت لك أيضاً؟

ـ آه.. نعم.. نعم..

ـ كنت تبكي بانفعال واضح.. هل مات قريب لك؟

ـ لا.. لا.. ليس كما تعتقدين.. فأنا حزين لأن حياتي مضت في اتجاه لا أرغب فيـه.. بل أمقته.

ـ لا بأس فالحياة غالباً ما تمضي في اتجاهات لا نرغب فيها.. لأننا لسنا أسياد أنفسنا في هذه الدنيا حتى نتمكن من تحقيق ما نرغب أو نمضي في الاتجـاه الـذي نريـد.. فالحيـاة مليئة بالمفاجآت المفرحة حيناً، والمحزنة أحياناً.. لكـن هـذا لا يعـني الاستسـلام للحـزن والكآبة..

ـ لكن مشكلتي مختلفة تماماً يا آنسة..

ـ أهي خاصة بك.. أم تخص أحد أقربائك؟

ـ لا.. لا.. إنها خاصة بي..

ـ أشعر بأنها فرصة طيبة للتعارف فيما بيننا.. على كل حال اسمي "جانيت" طالبة في السنة الثانية قسم التاريخ.

ـ اسمي "ميشيل".. كنت طالباً.. أقصد: طالب في كلية الاقتصاد.. في السنة الثانية أيضاً.

ـ لا شك أنها صدفة جميلة يا سيد "ميشيل".. فنحن طالبان في الجامعة، وفي نفس السنة أيضاً.

نظرت إلى "جانيت"، متملياً ما حباها الله من الفتنة والجمال.. يبدو أنها شابة ذكية، وهذا ما يجعلها بالإضافة إلى جمالها شهية أيضاً!!!

ـ لست أرغب في إزعاجك يا سيد "ميشيل".. إن أردت إلا تمضية الوقت وتبادل الحديث معك.. وأعتذر لك إن أزعجتك.. وسأنهض في الحال..

تداركت الموقف وقلت:

ـ لا.. لا بالعكس.. أشعر برغبة في الحديث معك.. خاصة وأني لا أستطيع أن أحدث أحداً من أقربائي بمشكلتي.. فربما أرويها لشخص تربطني به مودة..

ـ إذن فنحن ـ كما أعتقد ـ لم يكن لدينا الوقت الكافي لنصل إلى الدرجة التي يمكننا معها تبادل الأسرار.

ـ ليس سراً بمعنى الكلمة ما أخفيه.. فأنا مريض.

همهمت جانيت بصوت منخفض

ـ مريض..

ثم رفعت صوتها قليلاً وقالت:

ـ لكن المرض ليس عيباً..

ـ إن مرضي صعب وخطير..

ـ رغم ذلك فالعلم أوجد الدواء لأكثر الأمراض خطورة.. حتى السرطان

ـ السرطان.. مازال العلم يحاول حصاره.. ولم ينجح حتى الآن..

وتابعت قائلاً بأسى:

ـ رغم فتوحات العلم الباهرة.. لكنه عاجز على الأقل حتى الآن عن علاج بعض الأمراض.

ـ قلت إنك مريض.. وإن مرضك صعب العلاج.. لكن هل هو مستحيل العلاج؟

ـ نعم.. حتى اليوم يبدو العلاج مستحيلاً..

ـ أهو السرطان مثلاً؟

ـ آه.. إن مرضي لا شك قاتلي..

قالت جانيت مشفقة:

ـ خفف عنك.. قد يعالج السرطان.. فقد نجح الطب في علاج الكثير من حالات وأنواع هذا المرض.

ـ إلا حالتي.. فالعلاج يبدو فيها مستحيلاً..

وأخذت الدموع تترقرق في عيني، فهمست مستأذناً بالذهاب.. وأنا أغالب غصة في حلقي "ميشيل".. ما رأيك بمثل هذا الوقت؟

ـ أرجوك يا آنسة جانيت.. فأنا في حالة يائسة جداً.

ـ على كل حال سأكون هنا غداً.. لا تتشاءم كثيراً.. فقد يأتيك الفرج من حيث لا تدري.. سأكون بانتظارك غداً.

تبدو جانيت، إضافة إلى جمالها وحيويتها، تتمتع بالحس الإنساني المتوقد النقي.. ويبدو أنها قد أعجبت ببقايا شاب.. ولا شك أنها اعتقدت أني مصاب بالسرطان.. آه.. كم أشفق على هذه الفتاة، ولذلك لن أذهب للقائها غداً.

العرض الصاعق

وفي اليوم التالي.. استيقظت مبكراً وارتديت ثيابي على عجل.. كنت في أشد الشوق إلى رؤيتها، وكأن هذه الفتاة قد سحرتني بعينيها الزرقاوين الصافيتين وكأنهما البحر الأزرق.

خرجت على عجل من غرفتي.. فرأيت أمي في بهو الشقة

- نهارك سعيد يا أمي

- نهارك سعيد يا بني.. أراك سعيداً اليوم

- الحمد لله

- سأحضر لك القهوة حالاً

- لا.. لا.. ليس لدي رغبة لتناول القهوة.. إلى اللقاء

- إلى أين أنت خارج..

- لن أتأخر يا أمي.. لن أتأخر

- رافقتك السلامة يا بني..

وفي الطريق انتابتني خواطر وتساؤلات لم أحر لها جواباً.. فلماذا أسعى إلى لقاء "جانيت"؟ ألأني أحببتها؟ وبأي حق أربط مصيرها بمصيري المحتوم؟ علاوة على ذلك فإنني إن تماديت في حبي لها لا شك أني قاتلها.

فكرت بالعودة من حيث أتيت.. لكني وجدت نفسي أمام الحديقة.. وولجت إلى الداخل.. وأخذت عيناي تمسحان المكان حتى وقعتا عليها.. كانت المرة الأولى التي أراها فيها عن بعد وهي غارقة في قراءة صحيفتها.. فتاة تثير الاهتمام حقاً وخاصة جمالها الوقور الهادئ.

ـ آه.. كم أتمنى لو أستطيع العودة من حيث أتيت، دون أن تتمكن من رؤيتي.. واستجمعت ما بقي في نفسي من الإرادة، واستدرت فعلاً بنية المغادرة.. إلا أن ذاك الصوت الناعم شدني ثانية..

ـ سيد "ميشيل".. سيد "ميشيل"..

استدرت إليها، والاستعطاف يكاد يقفز من عيني، متمنياً أن تتركني بحالي.. لكن لساني خانني، و لم أتمكن من التفوه ببنت شفة.

هرولت جانيت باتجاهي، وأخذت يدي بين يديها، وشدتني بفرح طفولي غمر قلبي بالسعادة، وأعادني سنوات إلى الوراء.. فانصعت لإرادتها، ومشيت معها حتى وصلنا إلى المقعد، ثم جلسنا أحدنا إلى جانب الآخر.. و لم تترك "جانيت" يدي.. فأحسست بحنانها يسري في عروقي، كما تسري الكهرباء في الأسلاك.

ـ أنا آتي إلى الحديقة من وقت لآخر

قالتها جانيت، وأطرقت إلى الأرض.. ثم أردفت..

ـ ولكن حين قابلتك بالأمس، أحسست بأني سآتي إلى هنا يومياً.. وقد تمنيت أن نزداد تعارفاً.. أحسست بشيء يشدني إليك.. أعتذر عن صراحتي هذه.

ـ لا.. لا.. بالعكس، فأصدقك القول بأني لم أكن أنوي المجيء، لكن شيئاً ما شدني إليك وجعلني أسرع للقائك.

ـ لا عليك..،هل تحب أن نبقى هنا؟.. أم تقبل دعوتي لتناول فنجان من القهوة في الحانة؟

ـ لا بأس.. سنتناول القهوة..

ضحكت "جانيت" بملء فيها، وأمسكت يدي وتوجهنا إلى الحانة.. وهناك جلسنا متقابلين على طاولة بجانب النافذة المطلة على النهر.

ـ ماذا ستفعلين بالنسبة للدراسة؟

ـ لا شيء سأنتظر حتى تبدأ الدراسة وأنتظم في الجامعة.. وسأنجح حتماً.. قالت جملتها الأخيرة بفرح. ثم أردفت:

ـ تبدو معنوياتك جيدة، خلافاً للأمس..

ـ ماذا سأفعل.. لا شيء أمامي سوى تقبل واقعي المرير والتعايش معه..

ـ فعلاً فهذا الأمر هام جداً..

•

وتكررت لقاءاتي بجانيت في ذات المكان.. لكني لم أحاول أن أدعوها يوماً أو أشجعها على إنشاء علاقة جنسية بي.. لكن علاقة حب نشأت بيننا، وكانت عواطفنا جارفة.. حاولت مقاومة هذه العواطف، لكن ظنها بأني مصاب بالسرطان زادها انجذاباً لي، وأظن أن ذلك من باب الشفقة.

وسألتها يوماً..

ـ ألاحظ بأنك تحاولين إنشاء علاقة حب معي، بالرغم من يقينك بأني لن أعيش طويلاً، أيمكن أن يكون ذلك بدافع الشفقة.. أم الشعور بالوحدة وعدم الخوف من مستقبل علاقة مع شاب سيموت بعد حين؟

وتنهدت جانيت وقالت:

ـ لست أدري بماذا أجيبك يا "ميشيل".. لكني أرتاح للحديث معك.. وأشعر بأني منجذبة إليك.. ثم إن فيك من الرجولة والحنان ما يشد أي فتاة إليك.. ولو كنت أشعر بالشفقة نحوك، والشفقة فقط، لما تجشمت عناء المجيء للقائك والتفكير فيك.. لكن في المحصلة إن شيئاً ما في روحينا يشد أحدنا إلى الآخر.

ـ أمن الممكن أن تنمو مثل هذه العاطفة بيننا بهذه السرعة؟ فلم يمض على تعارفنا أكثر من أسابيع معدودة.

ـ وهل يحتاج الحب إلى مقدمات أو وقت معلوم لينمو ويكبر؟

شعرت بارتياح شديد لما قالته "جانيت".. وأحسست أنها صادقة فيما تقول وتدعي من عاطفة تجاهي.. كانت بسيطة وصادقة في تعابير وجهها وكلماتها النابعة من الأعماق.. ولا أشك مطلقاً أن علاقتي "بجانيت" أعادت إلى نفسي حبها للحياة بالرغم من رعب الإيدز الذي يرفرف بأجنحته القاتلة حول روحي.. ولا شك بأني سأتقيد بتعليمات الأطباء، إكراماً لها، فلا أريد لها أن تصدم بي يوماً.

لقد قلبت "جانيت" حالة اليأس في نفسي إلى أمل وتفاؤل بالحياة، رغم يقيني بأن حياتي لن تكون طويلة، ووجدت فيها شيئاً فريداً، لم أره في إنسان من قبل، ربما لأن الوسط الذي كنت أعيش فيه سابقاً لا يدرك معنى هذه العواطف الإنسانية الطاهرة.

وتكررت لقاءاتنا كثيراً، حتى جاءت إلي في يوم من الأيام تسألني، وشيء من الغضب يعكر عينيها الزرقاوين.

ـ ألا تحبني يا "ميشيل"؟

قلت بحيرة وقلق:

ـ بلى أحبك..

ـ إذن فاسمع.. أريد أن أقول لك شيئاً أثار حنقي..

ـ تفضلي فإني مستمع إليك..

ـ ماذا يفعل شاب مع فتاة إذا كان يحبها؟

ربطت الدهشة لساني.. فقد كنت سعيداً في العلاقة التي تربط قلبينا بعيداً عن جسدي الملوث بداء الإيدز الفتاك.. ونظرت إلي جانيت وقلت في نفسي.. آه يا عزيزتي هل تعتقدين أني سأهبك المتعة مجردة.. أنت لا تعرفين، ولو عرفت الحقيقة لا أظنك ستبقين معي لحظة واحدة.. فما في داخلي مرعب يا جانيت، فلا تمنحيه الفرصة التي يريدها للولوج إلى جسدك النقي والفتك به.

وقطعت علي "جانيت" حالة الشرود، وقد ازداد غضبها، معتقدة أن عزوفي عن طلب ممارسة الجنس معها استهتاراً بها أو تقليل لشأنها..

ـ لماذا لم ترد؟ ألم يعجبك ما أقول؟.. ألا يحق لي أن أستمتع مع الشاب الذي أحب؟!!! لماذا شحب وجهك وتغير لونك، وكأنك تعيش في بلاد أخرى متخلفة؟!!!

وبشيء من التلطف أضافت:

ـ هل قلت شيئاً يجانب الصواب؟

واسترسلت "جانيت" في حديثها، بعد أن هدأ روعها، فتحدثت عن رفيقاتها اللواتي كلمتهن عني، وعندما سألنها عن المرات التي ضاجعتني فيها، نفت أن تكون قد نشأت بيننا أي علاقة جنسية، فتضاحكن عليها، وبدأن يسخرن منها، عبر مناداتها بالعذراء!!!

فعلاً إنها كارثة! فكل شيء مباح في بلادنا حتى لو أدى ذلك إلى الانتحار عن طريق المتعة التي قد تورث مرضاً قاتلاً فتاكاً كالإيدز الذي لا دواء له سوى الوقاية المتمثلة بالابتعاد عن السلوكيات الجنسية، سواء أكانت شاذة أم طبيعية، إلا في الإطار الطبيعي والقانوني والشرعي. لكن يبدو أن مجتمعنا سائر في طريق النهاية برمته، وليس فقط المصابون بمرض الإيدز، فالقوانين عندنا، تبيح جميع الموبقات، وتدعو إلى المتعة أيا كان مصدرها، معتبرة أن ذلك يتعلق بالحرية الشخصية المقدسة.. فأي تقديس هذا الذي يفضي إلى الموت المحتم.

وقطعت "جانيت" شرودي ثانية وصرخت بي:

ـ لماذا لا ترد؟

وفجأة تغيرت ملامحها، وكأنها اهتدت إلى الإجابة الشافية وسألتني:

ـ هل تتردد إلى الكنيسة باستمرار يا "ميشيل"؟

وفهمت الهدف من سؤالها.. فقد أرادت أن تعرف مدى التزامي بتعاليم الدين المسيحي، على اعتبار أنه يحرم الزنا والعلاقات الخاطئة، ويدعو إلى الالتزام بالمؤسسة الزوجية.. وكأني وجدت الخلاص، فقلت:

ـ نعم.. أتردد على الكنيسة من وقت إلى آخر.

ـ إذن فما رأيك لو نتزوج؟ وليبارك زواجنا الأب، وأعدك بالالتزام.

آه.. ها هي تعود إلى محاصرتي ثانية.. رباه، كيف سأفلت من هذا الحصار؟

ـ آه ليتني التقيتك منذ زمن يا "جانيت"؟

ـ إذن أنت موافق.

ـ لا.. لا أستطيع أن أوافق على عرض كهذا يا عزيزتي.. على الرغم مما يحمله من إغراء.

صرخت "جانيت" ثانية متسائلة

ـ لكن لماذا؟

ـ اهدئي يا جانيت.. فأنا أتمنى الارتباط بك أكثر مما تتمنيه أنت، ولكن..

ـ لكن لماذا ترفضه؟

ـ لا أستطيع يا "جانيت".. لأني لا أريد أن أصدمك.. فأيامي معـدودة في هـذه الدنيـا ولابد مرضي قاتلي..

وأردفت بأسى.. اغرورقت معه عينـاي بـالدموع الحـارة.. ثـم قلـت لهـا مـن خـلال دموعي ونشيجي:

ـ قد أموت يا "جانيت".. قد أموت يا حبيبتي في أية لحظة.. فلماذا أظلمـك وأعذبـك معي بانتظار الزائر الأسود الذي أحس بأجنحته ترفرف حولي في كـل لحظـة، متربصـة بي، تنتظر لحظة الحسم التي تستل فيها روحي وترحل.. إنـي علـى يقـين يـا "جـانيت" الغالية أني إن لم أمت اليوم فسأموت غداً أو بعد غد أو بعد شـهر.. لكـني أشـعر بـأن أجلي قريب.. أقرب مما تتصورين.. وأنا خائف عليك.

وصرخت بكل ما في صوتي من قوة..

ـ لن أعيش طويلاً يا "جانيت" هكذا أكد جميع الأطباء.

وجمت جانيت.. بل عقدت الدهشة لسانها ثم قالت:

ـ حبيبـي "ميشيل" أرجوك فكر جيداً بالأمر.. وسأنتظر قرارك المدة التي تريد، ولا تعط جوابك الآن.

وأطرقت رأسها ثم قالت:

ـ أنا أحبك يا "ميشيل".. أتوسل إليك أن تفهم مشاعري.. أحبك.

وهممت بالكلام، فقاطعتني وقالت بهمس:

ـ أرجوك ليس الآن، فلنؤجل قرارك إلى وقت آخر.

الأمل

لا أدري ما الذي يشدني إلى "جانيت".. فبالرغم من القرار الذي اتخذته بعدم لقائها ثانية أجد نفسي مشدودة إليها.. مشدودة إلى الحديقة والمقعد الذي التقينا عليه.. لا شك أنه الحب.. لكن الحب والموت لا يتعايشان.. فهي تمثل الحياة المفتوحة على مصراعيها.. وأنا بدوري أمثل الموت الأسود المنغلق الذي يضفي على حياتي ظلاماً دامساً.

آه.. كم أرغب بالطيران إليك يا "جانيت".. لكنك لا تدرين أنني إذا وافقتك على ما تريدين فإني أوقّع بذلك شهادة وفاتك بيدي.

تنبهت إلى صوت أمي الذي يدعوني إلى تناول القهوة معها، فلملمت أوراقي واتجهت إلى الشرفة المطلة على الشارع، حيث كانت أمي جالسة.. وجلست قبالتها واجماً.

ـ ما بك يا "ميشيل"؟.. أنا أمك، أخبرني، لعلي أستطيع مساعدتك.

ـ ألا تملين تكرار نفس السؤال يا أمي ـ قلت ذلك بين وبين نفسي ـ فأنا لا أستطيع أن أجيبك خوفاً عليك.

ـ لماذا لا يفارقك الوجوم منذ عدة شهور.. فأية مشكلة تعانيها وتخفيها عني؟

ـ ليس هناك مشكلة يا أمي، فاطمئني..

ـ أتمنى أن يكون الأمر كما تقول.. ولو أني أشك في ذلك..

رسمتُ على وجهي ابتسامة أدركت أمي أنها مصطنعة.. ثم قبلتها ودخلت إلى غرفتي وارتديت ملابسي وخرجت على عجل.. فوجدتها أمامي..

- إلى أين أنت خارج يا بني؟

- لن أتأخر يا أمي.

واستقبلني الشارع باتساعه على المدى، لتشدني خطواتي نحو الحديقة.. فلا شك أني سأجد "جانيت" هناك.. وعندما وصلت إلى باب الكنيسة المجاورة، التي لم تلفت انتباهي يوماً ما.. كانت لدي رغبة شديدة بالدخول.. فولجت بابها على خجل، لتطالعني صورة السيدة العذراء.. فأبطأت خطواتي باتجاهها وكأن إحساسا انتابني بأنها ستعاتبني على عدم زيارتي لها طيلة السنوات السابقة.. وأخذت أتطلع إليها، وقلبي يفيض بالاستغفار.. وعيناي تفيضان بالدمع..

جثوت على ركبتي متهالكاً، ورفعت طرفي نحوها متوسلاً باكياً؛ لعلي أغسل شيئاً من ذنوبي بهذه الدموع.. لعل هذه الدموع تخلق قليلاً من الارتياح في قلبي الذي أمضه الألم.

أيتها العذراء الطاهرة.. جئتك نادماً.. أشكو إليك ما أعانيه من بؤس ومرض.. أشكو إليك جبروت القدر الذي وضعني أنا والموت وجهاً لوجه.. إن الأقدار تسخر مني أيتها العذراء.. بل لم تقنع ولم تكتف بالسخرية، لتضعني الآن في موضع يستحيل اتخاذ قرار فيه.

إني أتألم أيتها السيدة العذراء، فقد ذوت الحيوية في نفسي التائهة، وانطفأت شعلة الحياة.. فكيف يقدر هذا الكم الهائل من الألم على إنسان يتجرع وحده كؤوس العذاب والمرارة كل يوم أشكالاً وألواناً؟

هذا كثير.. فإن عدالة الرب ورحمته - لا شك - تأبى هذا الوضع.. أرجو أن يرحمني الرب خالقي، ولا يضن علي بعنايته. فإلى متى أبقى دمية صماء تسخر منها الأقدار، ولا حول لها ولا قوة؟

طال بقائي أمام صورة السيدة العذراء، حتى شعرت بالتعب يغزو ركبتي الواهنتين.. نهضت على قدمي، ثم رسمت شارة الصليب، واتجهت نحو الباب.. وقد قررت أن أواجهها بحقيقة مرضي، وليكن ما يكون.

يبدو أنها لم تأت إلى الحديقة اليوم.. فقد جابت عيناي المكان، ومسحت جميع أركانه وزواياه، ولم أرها.. ترى هل قررت قطع علاقتها بي بعد أن انقطعت عن المجيء لعدة أيام؟.. لا أدري.. لكن إن كان الأمر كذلك تكون قد أراحتني من مواجهة الموقف الصعب.

دلفت إلى الحانة المجاورة، وسحبت كرسياً إلى طاولة قريبة من الباب، ثم جلست مطرقاً متكئاً على الطاولة.

- هل تشرب شيئاً سيدي؟

سألني النادل..

- نعم فنجاناً من القهوة لو سمحت..

ـ فليكونا فنجانين..

كان صوتها الناعم الرقيق.. فأخذ قلبي يتراقص طرباً.. فقد كان كصوت ملاك شق عنان السماء، لينثر الضياء في حنايا قلب أمضه الألم والعذاب، فارتفع صوتي قليلاً ليعكس إحساسي بالفرح لمجيئها.. وقلت مؤكداً.

ـ فنجانين من القهوة..

وجلست "جانيت" قبالتي.. كان كل ما فيها يناديني إلى عشقها.. أخذت يديها بين يدي وانهلت عليهما تقبيلاً وبللتهما بدموع الفرح..

تركت "جانيت" يديها بين يدي لبرهة، ثم سحبتهما برقة، وتناولت منديلا من حقيبتها، ثم دارت حول الطاولة، وجلست بجانبي، وبدأت تمسح دموعي بمنديلها.. ثم أخذت رأسي بين يديها وشدته إلى صدرها.. واستسلمت تاركاً رأسي يتهاوى مستمتعاً بالحنان النابع من القلب الكبير.. أحسست أن صدرها واسع بإمكانه استيعاب هموم وآلام جميع البشر.. تمنيت ألا أرفع رأسي عن صدرها.. وكأني لم أشعر بالحنان فيما سبق من حياتي مطلقاً.

ـ ما بك يا "ميشيل" لِمَ كل هذا اليأس؟

ـ أخاف أن أفقدك يوماً يا "جانيت"..

وعدت للبكاء ثانية

ـ أرجوك لا تبك.. فأنا أدرك تماماً أنك تشفق علـي، فـأنت إنسـان رائـع.. وهـذا مـا يجعلني أتمسك بك أكثر، ولا أريد أي شيء سوى أن تكون بجانبي نعيش حبنـا الطـاهر حتى النهاية.

رفعت رأسي فجأة وأخذت أنظر في عينيها

ـ أأنت جادة فيما تقولين.. أعني لن تتركيني؟

ـ هل أنت مجنون.. فكيف أتركك وقد استوليت على قلبي ومشاعري؟

ـ آه.. لو تعلمين كم أحبك يا "جانيت"..

قلتهـا، والغصـة في حلقـي.. مغالبـاً دموعـي ومشـاعري.. فخرجـت كأنهـا حشرجة إنسان يحتضر.

ـ هدئ من روعك يا حبيبي.. فنحن في مكان عام.. وقد بدأنا نفلت الأنظار.

ـ اعذريني أرجوك.. فإني أحبك.. أحبك.. أحبك.

ضحكت "جانيت" ثم مالت علي، وطبعت علي شفتي قبلة لن أنسى طعمهـا ما حييت.. فقد قبلت العديد من الفتيات فيما سبق من حياتي، إلا أن قبلـة "جـانيت" كانت مختلفة الطعم.. ورائحة أنفاسها الزكية لا تشبه بحال من الأحوال رائحة أنفـاس أي من الفتيات اللواتـي قبلتهـن مـن قبـل، وخاصـة "فرانسـواز" ذات الرائحـة المميزة بسبب السجائر..

نظرت ملياً في الوجه الملائكي بجانبي وقلت:

ـ آه يا "جانيت".. ليتني التقيتك منذ زمن بعيد.. فكم كنت بحاجة إليك.. أنا واثق أنك كنت ستغيرين مسار حياتي.

ضحكت "جانيت" وقالت:

ـ نحو الأفضل.. أم نحو الأسوأ؟

ثم أردفت قبل أن أجيبها:

ـ طالما أنك التقيتني والتقيتك.. فلا يهم الزمن.. المهم أننا التقينا، وها نحن مع بعضنا.

ـ كيف لا يهم الزمن.. فقد تأخرت كثيراً..

لا تجعل اليأس يعود إلى قلبك ثانية.. وكن متفائلاً.. وعد إلى الأحاسيس الجميلة التي كانت تنبض في قلبك وتتلألأ في عينيك.

أسندت رأسي إلى كتفها، فأسندت بدورها رأسها على رأسي، وأخذت أصابعها الرقيقة تعبث في خصلات شعري المتهدلة..

وطرق صوت النادل أذني..

ـ القهوة أيها السيد والآنسة..

ـ آه.. شكرا..

قلتها دون أن أنظر إليه.. أو حتى أن أفتح عينيّ المغمضتين على حلم جميل أستمده من حنان "جانيت".

قرار الرحيل

شعرت بارتياح شديد لموقف جانيت ولحديث الأمس.. فقد كانت صادقة، تبدو كلماتها نابعة من أعماقها، مما قلب حالةِ اليأس والحيرة التي كنت أعَيشها، وأعتقد أنها كانت وراء تمكني من قضاء ليلة هادئة، نمت خلالها بعمق لم أشهده منذ عرفت بإصابتي بالمرض اللعين.. فقد أحسست أن "جانيت" تختلف عن جميع نساء الأرض، ولا تعير اهتماماً كبيراً لنزوات الجسد بقدر ما تهتم بعمق العاطفة الإنسانية، وهذا ما أحتاجه بالضبط.

واستمرت علاقتي بجانيت، لفترة لا أدري مقدارها على وجه الدقة.. كنا نلتقي يومياً في الحديقة نفسها التي التقينا فيها للمرة الأولى.. ثم تطورت علاقتنا وأصبحت تزورني في البيت من وقت لآخر، دون أن تتحدث مع أمي في موضوع مرضي خوفاً من إزعاجها، لأني قلت لها بأني لم أخبر والدي.

وأحبت أمي "جانيت".. كما أحبها أبي.. فقد رأيا فيها الأمل الذي أخرجني من اليأس والقنوط إلى الدنيا الواسعة بما فيها من مباهج وحيوية وأمل لا يخبو نوره.

وفي يوم من الأيام، وبعد أن غادرت "جانيت".. همست أمي غامزة..

- قل لي يا "ميشيل".. هل تحب "جانيت"؟

- نعم يا أمي أحبها.

- حدثني يا بني، ما الذي يربطكما.. هل اتفقتما على شيء محدد.. هل..؟

ـ ماذا تقصدين يا أمي؟

ـ ماذا أقصد؟.. أقصد هل اتفقتما على الزواج.. هل هناك علاقة أخرى تربطكما؟ هل هناك اتصال..

وضحكت أمي بخبث بعد أن لفظت كلمتها الأخيرة..

ـ لا يوجد أي شيء مما يدور في ذهنك يا أمي.. فجانيت تختلف عن جميع نساء الأرض.. فوق ذلك فأنا لا..

وسكتّ.. إلا أن سحابة من الألم ظهرت على وجهي

ـ ما بالك يا بني.. لا شك أنك تخبئ عني شيئاً هاماً..

ـ أرجوك يكفي.. يكفي يا أمي..

ـ هيه.. لا تصرخ هكذا.. فلن أحدثك بشيء بعد الآن.

ـ أنا آسف يا أمي، أرجوك سامحيني.. فإني متعب كثيراً.

ـ لا بأس.. لا بأس

لقد أعادني حديث أمي إلى الوراء، وجعل حالتي تنعكس مجدداً، فلا شك أن لجانيت الحق في أن تعيش كأي فتاة أخرى، وتستمتع بحياتها مع شاب تحبه ويحبها، بعيداً عن شبح الإيدز المرعب.. لكني واظبت على لقائها بشكل يومي، حتى الأيام الأولى لافتتاح الجامعة، عندها لاحظت أنها لا تواظب على دروسها.

إحساس غريب انتابني، وشعور بالذنب بدأ يملأ علـي حيـاتي.. فقـد انتزعتهـا من الحياة ذاتها حين شجعتها على التمادي في عواطفها تجاهي.. وها أنـا ذا أبـاعد مـا بينها وبين مستقبلها، وأعطلها عن دراستها.. ألا يكفـي أنهـا أضـاعت العـام المـاضي سدى برسوبها.. أو هل أدفعها إلى تبديد هذا العام أيضاً بأنانيتي؟

كان لم يمض على علاقتي بجانيت سوى عدة شـهور، حـين قـررت الانفصـال عنها وهجرها إلى غير رجعة، ومنحها حريتها لتبحث عن مستقبل أفضل مع شـاب لا يهدد حياتها بحبه، بل يمنحها الحياة والسعادة. وما شجعني على هذا القرار ــ أي قـرار الرحيل - إلا إلحاح أمي على معرفة سبب كآبتي.. وأنا لا أريـد أن أفجعهـا بوحيدهـا، بل لعل رحيلي يترك باب الأمل مفتوحاً أمامها بعودتي يوماً.

أما أبي فقد كان سلبياً إلى حد كبـير، حيـث يعتقـد بالحريـة الفرديـة، وعـدم التدخل في حياة الغير حتى لو كان ولده الوحيد.. كان يؤمن بقيم هذا المجتمع المنحـل حتى العظم.. هذا المجتمع السائر في طريق النهاية.. لكنـه كـان ينبـذ الشـذوذ وتعـاطي المخدرات على أي حال.

وأدركت أن حبي لجانيت قد يدفعني إلى التراجع عن هجرهـا والابتعـاد عنهـا وتركها لمستقبلها.. كما أن حبها قد يجعلني أضعف أمامها وأتراجع عن قراري فيما لو زارتني في المنزل أو قابلتها في الخـارج.. لذلـك قـررت أن لا أراهـا، فقـد كنـت أدرك مدى حبها لي تماماً كما أدرك مقدار حبها في قلبي المتعب.

وقررت أن أقضي على الأمل الباقي.. قررت أن أطفئ وميضه المنطلق من عيني جانيت الزرقاوين بلون البحر في قمة هدوئه وصفائه، اللتين طالما منحتاني الرقة والحنان، وأراحتاني من عذابي ولو إلى حين.

لقد قررت أن أرحل عن المدينة التي تقطنها ويقطنها والداي أيضاً، إلى مدينة أخرى بعيدة.. أو إلى منطقة نائية، لا يتوقع أحد أني ذهبت إليها.. كما قررت ألا أترك أي إشارة تدل على مكاني لأي كان. وستدق ساعة الصفر غداً صباحاً.. ففي الصباح الباكر سأجمع أغراضي الشخصية وأذهب إلى غير رجعة، دون أن أسبب ألما لأي إنسان.

سآوي إلى فراشي مبكراً هذه الليلة، فلا أعرف ماذا ينتظرني غداً.. لكن قبل ذلك يجب أن أحضر ثيابي والأدوات التي سآخذها معي.. وبالفعل أخرجت من الخزانة بنطالين وعدة قمصان وكنزتين صوفيتين وعدداً من الجوارب، إضافة إلى الأدوات الضرورية الأخرى، كفرشاة الأسنان وفرشاة الحلاقة والشفرات وغيرها، ووضعتها جميعاً في حقيبة صغيرة.

الرحيل

نهضت مبكراً صباح اليوم، وغسلت وجهي، ونظفت أسناني، ثم مشطت شعري بعد أن حلقت ذقني، وجلست إلى طاولتي أجمع أوراقي.. ثم تناولت كمية من الأوراق البيضاء ووضعتها في المحفظة.

سمعت صوت أمي يناديني

ـ ميشيل.. ألا تشرب القهوة معنا؟

ـ بلى يا أمي سأصل حالاً.

وخرجت من باب الغرفة، لأجد أبي وأمي جالسين قبالة بعضهما على الأريكة، يدور بينهما حديث يبدو جدياً وهاماً.

ـ نهاركم سعيد

ـ نهارك سعيد يا ميشيل.

ناولتني أمي فنجان القهوة وقالت:

ـ كنا نتحدث بأمرك يا ميشيل

رسم أبي ملامح الجدية على وجهه وقال:

ـ ما بك يا ميشيل.. لماذا أراك ساهماً حزيناً دائماً؟..

ـ فأجبته مطرقاً..

ـ لن تروني بعد الآن.

واستدركت

ـ أقصد لن تروني حزيناً بعد الآن

ـ نتمنى ذلك يا بني

ـ ألن تنتظم في الجامعة يا ميشيل؟

قالها أبي، وفي نبرته لهجة آمرة

ـ بلى، سأنتظم يا أبي.. لكني قبل ذلك أشعر بحاجة إلى فترة من الراحة والاستجمام

ـ لا بأس.. اذهبِ إلى أي مكان تريد

ـ أعتقد أني بحاجة إلى شيء من المال.

نقدني أبي فوراً كمية لا بأس بها من المال.. فتناولت المبلغ، ووضعته في جيبي فوراً.. وبعد أن شرب قهوته نهض واقفاً وقال:

ـ سأذهب إلى مكتبي

فاتني أن أذكر أن والدي كان محامياً ناجحاً في عمله، وملتزماً إلى أبعد درجات الالتزام.

وبعد أن أقفل أبي وراءه باب الشقة، وغادر إلى مكتبه، انتقلت إلى جوار أمي وقلت لها:

ـ أمي..

ـ ماذا يا حبيبي؟

ـ إن المبلغ الذي أعطانيه أبي قليل، وأعتقد أنه لن يكفيني لرحلتي..

ابتسمت أمي وقالت:

ـ فهمت إلى ماذا ترمي

ـ نهضت أمي إلى المشجب، وتناولت حقيبتها، وأخذت منها مبلغاً من المال، ثم ناولتني إياه وقالت:

ـ متى ستذهب؟

ـ الآن..

ـ إلى أين؟

ـ لم أقرر بعد.. لكني أعتقد بأني سأذهب إلى إحدى مناطق الاستجمام

ـ وهل ستكون بصحبة جانيت؟

ـ لا أدري إن كانت ستذهب معي أم لا

ـ على أي حال لا تتأخر كثيراً

ـ لا يا أمي، سأغيب أياماً قليلة فقط

دلفت إلى غرفتي، وتناولت حقيبتي، وخرجت مسرعاً، لأجد أمي بانتظاري.. نظرت إلى أمي مطولاً ثم قلت:

ـ سامحيني يا أمي

ـ ماذا يا ميشيل؟

ـ سامحيني.. واطلبي من والدي أن يسامحني.. وصلي من أجلي.

ـ ماذا اقترفت بحقنا حتى نسامحك يا بني؟

ـ أعتقد أني سببت لكم ألماً وضيقاً.. لكن أعدك بأن ينتهي هذا الألم قريباً وستنسون كل شيء.

يبدو أن أمي لم تستوعب تماماً ما كان يدور بخلدي.. ولو أنها توجست بذلك.. لكنها لم تعلق.. فعانقتها وقبلتها، ثم خرجت مسرعاً دون أن أنظر إليها، لكني سمعتها حين قالت بأعلى صوتها:

ـ مصحوب بالسلامة يا بني.

وعندما أقفلت باب الشقة من الخارج أجشهت بالبكاء.. فقد أحسست أن ألماً يعتصر قلبي، وعبرة تكاد تخنقني.. فالفراق صعب ومؤلم، لكن ليس هناك حل آخر.. فالرحيل هو الحل المناسب الوحيد لإراحة جميع من حولي من هذا العذاب، وخاصة جانيت الحبيبة وأمي وأبي.

مسحت دموعي بمنديلي.. وحملت محفظتي، ثم تحسست النقود في جيبي، وتوجهت لتوي إلى مكتب قطع التذاكر.. وفي الطريق اخترت بلدة نائية لأستقر فيها لا يمكن أن تخطر على بال أحد.

واشتريت التذكرة.. وصعدت إلى الحافلة الحديثة المكيفة.. وأزحت الستائر عن الزجاج، وأطلقت نظري في الفراغ متسائلاً، ماذا سيكون موقف والديّ عندما يعرفان أني هربت.. بل ما هو موقف جانيت؟

وانطلق صوت المضيف عبر مكبرات الصوت المتناثرة في أنحاء الحافلة يقول:

ـ ستنطلق الحافلة حالاً إلى بلدة إكسس.. حيث سنصلها في حوالي الثانية ظهراً.. نرجو أن تتفقدوا أمتعتكم للتأكد من عدم نسيان أي شيء.

وانطلقت الحافلة.. وانطلقت معها دموعي ونظراتي التائهة المودعة من خلالها، فبدت الطرقات والمباني أمامي وكأن التصدعات والشروخ قد غزتها، حتى لتكاد تسقط لتوها وتنهار.

كفكفت دموعي، وتناولت صحيفة كانت أمامي، وأخذت أطالع فيها دون أن أفقه شيئاً مما أقرأ.

في البلدة

فور وصولي إلى بلدة إكسس توجهت إلى فندق من الدرجة الثالثة.. وحيث أدرك أن المبلغ الذي كان بحوزتي لا يكفيني لفترة طويلة، لذلك قررت أن أتدبر أمري بمصروف قليل، ريثما أجد مصدراً آخر للرزق.

وفي صباح هذا اليوم - اليوم التالي لوصولي للبلدة - قمت بجولة على مكاتب تأجير المنازل بحثاً عن غرفة وقد وقع اختياري على غرفة صغيرة في بناء شبه متهالك، وبعد أن دفعت أجرة ثلاثة أشهر تسلمت المفتاح.

الغرفة صغيرة جداً، تطل نافذتها الوحيدة على شارع شعبي، وبناء مقابل، أفضل حالاً من البناء الذي تقع فيه، تحتوي على خزانة صغيرة، وطاولة قديمة وسرير خشبي يصدر صريراً لأي حركة أقوم بها، أما الفراش فهو قديم، وكذلك الأغطية؛ إلا أن عزائي أن أجرتها رخيصة لدرجة أستطيع بما أملك من نقود تحملها لعدة أشهر.

ومع الأيام الأولى لسكني في تلك البلدة، انتابني إحساس بالغربة والفراغ، سرعان ما ازداد وتفاقم مع مرور الأيام، لتعود حالة الكآبة واليأس إلى نفسي مجدداً، بعد أن أحيت جانيت الأمل فيها لفترة من الزمن.. و لم أنس جانيت.. فقد أصبح خيالها يلازمني في حلي وترحالي.. وصدى صوتها لم يفارقني أبداً. أصبحت آوي إلى غرفتي الحقيرة في غالب الأوقات متأخراً جداً، فأكتب ما حدث معي أثناء النهار، قبل أن أخلد إلى النوم الذي غالباً ما كان يهجرني، لتجدني أتقلب في سريري طوال الليل.

كان قد مضى على اكتشاف إصابتي بالمرض اللعين أكثر من عام كامل.. و لم تكن حالتي قد تفاقمت بعد، أي لم يبدأ الإيدز الكـامن في جسـدي بالتهامـه والقضـاء عليه، اللهم إلا ارتفاعاً طفيفاً في درجة الحـرارة، كنـت غالبـاً مـا أتجـاوزه بـاللجوء إلى الحمام، وسكب الماء البارد فوق جسدي ولو كان الجو بـارداً، ثـم الخـروج إلى الهـواء الطلق لأشعر بشيء من الانتعاش.

قضيت حوالي شهر كامل في البلدة، دون معارف أو أصدقاء، وحتى دون أن أتحدث إلى أحد إلا بائع السندويش المجاور، وبائع الدخان القريب، حيث كنت أشتري ما احتاج إليه من طعام ودخان منهما.

واستمر الوضع على هذا المنوال، أخرج في الصباح، فأجوب شوارع وطرقات البلدة طيلة النهار، ثم أعود إلى غرفـتي في وقـت متـأخر، وفي بعـض الأحيـان ألجـأ إلى الحدائق والبساتين، وأقضي فيها الساعات الطوال، ساهماً مكتئباً حتى غزا الملـل قلبي، و لم تعد بي رغبة للخروج من غرفتي فعزلت نفسي فيها لعـدة أيـام، لكـن سـرعان مـا شعرت بحاجة للخروج مجدداً.

خرجت من غرفـتي لا ألـوي علـي شـيء، وعرجـت علـى بـائع السـندويش، فأخذت ما أحتاجه من طعام، ثم إلى بائع الدخان، فابتعت علبة سجائر، ثـم توجهـت إلى الحديقة المجاورة، وبعد أن التهمت سندويشاتي، أشعلت سيجارة، وأخذت أدخنهـا بتلذذ متمعناً بوجوه الناس.

وتذكرت "جانيت" وأمي وأبي... ترى ماذا يفعلون الآن؟ هل يبحثون عـني؟ لا شك أن "جانيت" قد نسيتني تماماً والتفتت إلى دروسها.. أتمنـى ذلـك.. لكـن أمي

وأبي لا شك أنهما يبحثان عني الآن، وقد تأثرا كثيراً لغيابي، خاصة وأني أبلغتهم كاذباً عند رحيلي أني لن أغيب سوى أيام قليلة..

لكن هل من المعقول أن تنساني "جانيت"؟ "جانيت" التي أحببتها بكل جوارحي هل تنساني؟.. ربما لم تنسني، لكنها وجدت شاباً غيري يحبها ويمنحها المتعة والسعادة التي عجزت أن أمنحها إياها خوفاً عليها.. خوفاً من نقل المرض الفتاك من جسدي الآيل إلى الفناء إلى جسدها المفعم بالحيوية والنشاط.

آه.. كم أشتاق إليك يا "جانيت".. كم أشتاق إلى نظراتك الحالمة ولمساتك الحنون.. آه لو تعرفين يا حبيبتي بأني آثرت الرحيل والابتعاد عنك على أن أكون السبب في دفعك إلى السقوط في الهاوية.. وأي هاوية؟.. إنها الإيدز.

وتعود بي مخيلتي إلى والدتي الحبيبة التي علقت أحلامها بي، وتمنت دائماً أن أكون شخصاً ذا قيمة في المجتمع، فخنت أمانيها، وحطمت أحلامها من خلال استهتاري وخطاياي التي لا تغتفر، وفكرت بوالدي الجاد دائماً، بحيث إنك من النادر جداً أن ترى ابتسامة على وجهه، علاوة عن الضحك الذي لا يعرفه مطلقاً.. لكن إيمانه بالحرية الشخصية، وتربيته إياي على هذا المبدأ، إضافة إلى الرفاق الذين لم أحسن اختيارهم كانوا وراء سقوطي في براثن هذا المرض اللعين الذي لا أشك في أنه سيودي بحياتي إلى الجحيم؛ اللهم إلا إذا وقعت المعجزة، وتم اكتشاف دواء فعال لمرض الإيدز. لكن الأمل ضعيف جداً في حصول هذه المعجزة، بالرغم من الجهود الجبارة التي يبذلها العلماء في سعيهم وراء اكتشاف هذا الدواء، فالوقت يسبقهم، وأعداد المرضى في تزايد

مستمر، وحالات الإيدز في تفاقم حيث يحصد العشرات.. بل المئات يومياً.. مما يجعل بارقة الأمل تخبو يوماً بعد يوم، حتى تكاد تنطفئ تماماً.

استمرت حالة الفراغ والملل القاتل واليأس المتمكن من كل خلية في قلبي.. واستمر تسكعي اليومي في الطرقات والشوارع والحدائق العامة، لفترة طويلة من الزمن، حتى مللت هذه الحياة، وصرت أتمنى الموت لأتخلص من رحلة العذاب المضنية التي طالت بحيث لم أعد أستطيع تحملها، لكن يبدو أن الموت أيضاً ليس سهل المنال.

فكرت في الانتحار عدة مرات، واشتريت في إحداها سماً من الصيدلية المجاورة، وفي كل مرة أهم بتناوله أضعف أمام فكرة الموت، وكأن قدري كتب علي أن أعيش حالة من الصراع المرير مع هذا الموت الذي لا يريد أن يأتي إلي ويخلصني من عذابي.

ولا زالت العلبة على الطاولة في غرفتي، على أمل التمكن من تناولها يوماً، بعد أن تداهمني الشجاعة التي افتقدتها طيلة حياتي، فأضع بذلك حداً لآلامي وضعفي.. ضعفي حتى أمام المخدرات التي لم أستطع الابتعاد عنها، لكني لا أستطيع الحصول عليها، بسبب قلة المال الذي أملكه، فاستعضت عنها بعقار الليبريو المهدئ الرخيص الثمن.

أنا أعمل

خرجت من منزلي.. أقصد غرفتي القذرة.. خرجت صباح اليوم دون أي هدف كعادتي كل يوم.. فقد انتفت الأهداف من قاموس حياتي، فأيِ هدف سيسعى إليه منتظر الموت الذي يتوقع وصوله في أية لحظة؟.. المهم إني ارتديت ملابسي على عجل وخرجت وكأني أهرب من أحد يلاحقني في غرفتي.. وعندما أصبحت في الشارع تذكرت أني لم أغسل وجهي و لم أمشط شعري..

شعرت برغبة شديدة بالتبول.. فعدت أدراجي، ثم دخلت إلى بيت الخلاء، ثم غسلت وجهي ومشطت شعري، ووضعت دلة القهوة على الغاز الصغير الذي اشتريته لدى قدومي إلى هذه البلدة، وبانتظار القهوة أحسست برغبة في ترتيب غرفتي التي لم أرتبها منذ فترة طويلة فرتبتها، وجلست إلى طاولتي أكتب يومياتي هذه آه.. يبدو أني نسيت القهوة على النار..

نهضت مسرعاً لأجد الماء قد جف.. عدت وملأت الدلة بالماء، وانتظرته حتى غلى فصنعت القهوة وسكبت فنجاناً وضعته بجانبي على الطاولة وبدأت أرشف منه رويداً رويداً.. فلم العجلة.. الوقت طويل، والصراع أطول، ويبدو بلا نهاية قريبة.

تناولت القلم ثانية لأعاود الكتابة.. آه كم كنت أتمنى أن أصبح كاتباً أو شاعراً كبيراً أو روائياً معروفاً.. لقد كان ذلك حلم حياتي.. وهو الذي دفعني في وقت من الأوقات إلى قراءة العديد من الأعمال الأدبية لكبار الكتاب، كجان جاك روسو وفيكتور هوجو.. وحتى الأعمال الفلسفية لفلاسفة معروفين كجان بول سارتر

وغيره.. لكن هذا الحلم قد تلاشى تماماً.. ويبدو بأني أسعى في أواخر أيامي إلى تحقيق ولو جزء بسيط منه عبر كتابة يومياتي هذه التي قد تجد طريقها إلى النور يوماً.

انتهيت من شرب القهوة وخرجت إلى أحضان الشارع ليضمني بطوله وعرضه واتساعه المفتوح على المدى.. بل قل المفتوح على الهاوية، لكن لم يحن الوقت بعد للسقوط.

تطلعت حولي لأرى الناس مشغولين عني بمشاكلهم الصغيرة.. فجميع المشاكل.. وجميع المآسي تصغر وتنتفي، أمام مشكلتي ومأساتي التي تتعملق وتكبر يوما بعد يوم ككرة الثلج، حتى تكاد تلتهم ما بقي لدي من عقل وحكمة وتدبير.

وتساءلت بيني وبين نفسي، هل يعيش أحدهم مأساة مشابهة لتلك التي أعيشها؟.. لو علم أحدهم بمرضي فماذا سيفعل؟.. ربما يحتقرني.. وربما يبصق علي.. فمرضي هو الابن الشرعي لخطيئتي غير الشرعية..

ويكبر الوهم في داخلي لتقودني تخيلاتي إلى تصور أن جميع من في الشارع قد علموا بما يختلج في صدري فبدؤوا بخلع أحذيتهم وملاحقتي.. وبدأت أركض على غير هدى، ثم أخذت أصرخ مستغيثاً مستنجداً من الأحذية التي تلاحقني.. واستفقت من تخيلاتي على أحدهم يمسك بتلابيبي ويسألني بشفقة

ـ ما بك؟.. لماذا تصرخ هكذا؟ هل أنت مريض؟

وأحسست أن كلمته الأخيرة صفعة أصابت وجهي.. مريض..؟ نعم.. وأي مرض آه لو تدري.. أنه المرض المأساة التي لا مناص من نهايتها الأليمة.

وأجبته:

- نعم.. إني مريض..

واعتذرت منه، وأكملت طريقي هادئاً متسائلاً أين رأيت هذا الوجه من قبل؟ وتذكرت نعم.. إنه جاري في المسكن.. جاري زوج المرأة اللطيفة الدمثة التي تسكن قبالتي، والتي طالما تطلعت إلى بيتي بعين التطفل.. وكانت ابنتها التي تقارب العشرين من العمر تردعها عن ذلك.

شعرت بتعب شديد.. وبرغبة في التدخين.. مددت يدي إلي جيبي بحثاً عن سيجارة فلم أجد.. بحثت عن نقود.. دون جدوى أيضاً، فقد انتهت نقودي مساء أمس..

عدت أدراجي إلى المنزل آملاً بإيجاد سيجارة أدخنها.. فتحت الباب وبدأت أبحث في جميع أرجاء الغرفة التي أسميها منزلاً دون جدوى.. يبدو أني قد دخنت جميع سجائري خلال الليلة الماضية..

عدت أدراجي إلى الشارع باحثاً عمن يعطيني سيجارة.. ورأيت رجلاً وفي يده سيجارة.. وتقدمت نحوه وقلت:

- هل تمن علي بسيجارة؟

مد الرجل يده إلى جيبه وناولني سيجارة ثم قال:

- أرجو أن تكون قد تحسنت عما كنت عليه هذا الصباح..

نظرت إلى وجهه مستغرباً.. آه إنه جاري زوج المرأة المتطفلة.. قلت مرتبكاً:

ـ نعم.. نعم.. الحمد لله أصبحت أفضل.

قال متسائلاً:

ـ أعتقد بأنك لست من هذه المدينة؟

ـ نعم انتقلت إليها حديثاً.. منذ شهرين تقريباً..

ـ وماذا تعمل هنا؟

ـ لا شيء.. لا شيء

وومضت الفكرة في ذهني فاستدركت قائلاً:

ـ أقصد أني أبحث عن عمل..

ـ أستطيع مساعدتك إن أردت..

لماذا لا أعمل.. فقد يكون العمل سبيلاً إلى نسيان ما أعانيه من كآبة وألم.. كذلك فأنا بحاجة إلى المال.. لكن ماذا سأعمل؟

قطع الرجل سلسلة أفكاري المتعبة عندما قال:

ـ إني أملك مكتبة لبيع الصحف والمجلات والكتب، فإن كنت ترغب في العمل عندي فإني بحاجة إلى من يساعدني.

وأجبته على الفور:

- لا بأس.. لا بأس.. سأعمل عندك..

- إذن غداً صباحاً سآتي إليك لأصطحبك إلى مكتبتي.. اتفقنا؟

- حسناً اتفقنا..

ودعني جاري الطيب وانصرف إلى منزله فدخلت إلى البيت والجوع ينهش أحشائي.. وبحثت عن خبز أو أي شيء يصلح للأكل في البيت، لكن دون جدوى.. فصنعت فنجاناً من القهوة، وتوجهت إلى الطاولة المهترئة في ركن الغرفة.

وفي صباح اليوم التالي وفى جاري بوعده، واصطحبني إلى مكتبته، وعلمني أسلوب التعامل مع الزبائن.. وأخذت أمارس عملي بهدوء.. وكان في الأيام الأولى يدعوني لتناول الغداء معه في المكتبة أو في مطعم قريب، ومن ثم تناول قدحين من البيرة الباردة غالباً ما يأمرني بشرائها من المحل المجاور.

وفي آخر كل أسبوع كان ينقدني أجري كاملاً.. وكان على قلته يمثل كنزا بالنسبة لي بعد أن انتهت نقودي.

قصص بعض المصابين
بعض من مآسي الإيدز

لقد أتاح لي وجودي في المكتبة وتعاملي اليومي مع الصحف والمجلات والكتب الاطلاع في أوقات الفراغ على الكثير من الأمور التي تتعلق بمرض الإيدز.. فقد كنت أقبل على قراءة المواضيع التي تتناول المرض بنهم شديد وخاصة قصص المصابين والمصابات التي كانت تنشرها الصحف، بالإضافة إلى أخبار الأبحاث الجارية بحثاً عن دواء فعال لهذا المرض.

كانت حالتي لا تزال مستقرة فيما عدا ارتفاع الحرارة الذي كنت أعالجه بالماء البارد.. وكان المرض المتربص بي لا يزال كامناً في جسدي، يتحين الفرصة للقضاء علي، لكن طالما أنه لم يتمكن حتى الآن من ذلك فالأمل موجود، وإن كان ضعيفاً جداً، لكنه موجود على أي حال.

وفي هذه الظهيرة.. وبعد أن خفت الحركة على المكتبة وذهب صاحبها لينال قسطاً من الراحة في منزله، أخذت بتصفح الصحف والمجلات الموجودة في المكتبة.

آه.. يبدو أن هذه القصة مشابهة لحالتي.. شاب عاطل عن العمل، يقضي أغلب وقته بالتسكع بالشوارع بصحبة رفاق السوء، وكان يتعاطى المخدرات بطريقة المحاقن الوريدية والشم، ويتردد على بيوت الدعارة، ويعاشر العاهرات في الملاهي الليلية ويمارس اللواطة.. ومن خلال حملات التقصي التي تفرض على الأماكن المشبوهة اكتشفت إصابته.. وعندما عرف النتيجة أصابه الذهول.

وتضيف القصة، أن الشاب كان يسرق الأموال من والديه. ويهدف إرضاء نزواته، وخاصة ما تعلق منها بتعاطي المخدرات، وكثيراً ما عمد والداه إلى طرده من المنزل. وبالرغم من وضعه الصحي، لا بأس به حتى الآن، إلا أن وضعه النفسي كما تقول القصة سيء للغاية، حيث يعيش في دوامة من القلق، وكثيراً ما عمد إلى إيذاء نفسه عندما حاول الانتحار أكثر من مرة، وهو يكره مقابلة الناس ويشعر أن المجتمع يمقته.

إن في قصة هذا الشاب شيء من الشبه مع حالتي، لكنها ليست مطابقة تماماً لها.. فهو عاطل عن العمل، وأنا كنت طالباً في الجامعة.. آه يبدو أن في المجلة قصة أخرى سأقرؤها.

شاب أراد السفر إلى إحدى دول العالم وعندما طلبت منه السفارة شهادة خلو من الإيدز، ذهب إلى أحد المخابر، وبعد التحليل تكتشف إصابته فيصاب بالإحباط.

الشاب متزوج، ولديه عدة أطفال، أجريت التحاليل لهم جميعاً، فتبين أنهم سليمون وأصحاء.. أما عن سبب إصابته، فيكمن في تردده على العاهرات، وإحداهن كانت مصابة فنقلت الفيروس إليه.

وتساءلت بيني وبين نفسي، ما ذنب زوجته التي ترملت؟.. وأطفاله الذين تيتموا؟ وشكرت الرب لأني لست متزوجاً..

يبدو أن هذا المرض غير عنصري، أي لا يميز بين رجل وامرأة، فهذه قصة اكتشفت أثناء إحدى حملات التقصي التي تقوم بها الجهات المسؤولة، وقد نشرتها الصحيفة التي بين يدي.. فعندما أخذت عينه من دم إحدى النساء، تبين أنها مصابة بالمرض المميت، وقد تبين من خلال التحقيق أنها كانت تمارس الجنس مع الرجال مقابل المال، زاعمة أن هدفها هو توفير بعض المال لمساعدة زوجها على تحمل أعباء الأسرة.

آه.. يبدو أنها كاذبة.. فزوجها لا يعلم بالأمر.. حيث تضيف القصة أن فرقة التقصي اتصلت بالزوج، وأخذت عينة من دمه، دون أن تعلمه أن زوجته مصابة بالإيدز، وكانت النتيجة أنه سليم؛ وعندما قص عليها ما حدث معه انهارت و لم تتمالك نفسها، واعترفت له بكل شيء، فطلقها وتركها لمصيرها المحتوم.

إنها تستحق ذلك، خاصة وأن ما ذكرته عن أوضاع الأسرة المالية غير صحيح، وأن الهدف من ممارستها للدعارة هو إرضاء نزواتها الجنسية المتمكنة منها ومضاجعة الكثير من الشبان. وغالباً ما كان زوجها يردعها عن الضعف والميوعة الظاهرين لدى مقابلتها لأي شاب جديد، سواء بحضور زوجها أو بغيابه.

كنت مستغرقاً بالتفكير في قصة هذه المرأة.. ولا أدري كيف طرأت فكرة مقارنتها مع أمي على ذهني بالرغم من أن أمي ملتزمة إلى أبعد درجات الالتزام.. آه.. هل يكون أبي وراء إصابة أمي بالمرض اللعين في يوم من الأيام بالرغم من الجدية التي لا تفارق وجهه.

لا أدري لماذا انتابتني هذه الفكرة أيضاً.. لعل ذلك عائد إلى أن أبي يؤمن بالحرية الشخصية المطلقة.. لكني لا أعتقد بأنه يرتبط بعلاقة جنسية خارج المنزل، خاصة وأنه محام مشهور، ويسعى للحفاظ على المجد الذي وصل إليه.

استفقت من متاهة أفكاري السوداء على صوت صاحب المكتبة..

ـ يومك سعيد.

ـ يومك سعيد.

ـ كيف هي حركة البيع.

ـ أنت تعرف أن حركة البيع في هذا الوقت ضعيفة جداً.

ـ أعرف.. أعرف.. ماذا كنت تفعل؟

وتناول صاحب المحل المجلة التي كانت بين يدي، لتقع عيناه على قصة المرأة المصابة بالإيدز.. وبعد أن قرأها بتلهف قال:

ـ مسكينة هذه المرأة..

ـ بل مسكين زوجها المخدوع..

ـ لا علينا.. أرجو أن ترتب هذه الصحف والمجلات في أمكنتها.. وأرجو ألا أرى هذه الفوضى مرة أخرى.. فعندما تريد أن تقرأ إحدى الصحف أرجعها إلى مكانها حالما تنتهي من قراءتها.

ـ طبعاً سيدي..

وتناولت الصحف والمجلات المتناثرة. ورتبتها في أمكنتها المخصصة، ثم عـدت إلى مكاني.

القصة الفاجعة

عندما وصلت إلى المكتبة هذا الصباح وجدت أكواماً من الصحف الجديدة أمامه.. فقد كنت أصل عادة قبل قدوم صاحب المكتبة لأقوم بترتيب الصحف الجديدة التي تصل إلى المحل كل يوم، استعداداً للبيع الذي تزداد حركته مع ذهاب العمال إلى أعمالهم.

وقبل أن أنتهي من ترتيبها، وقعت عيناي على عنوان غلاف إحدى المجلات (الإيدز يتسبب بفاجعة).. و لم استطع الانتظار حتي أنتهي من الترتيب.. ففتحت المجلة ورحت أقرأ القصة الفاجعة التي تدعو فعلاً إلى الحزن والتضامن مع صاحبها، خاصة وأنه لم يسلك أي طريق يؤدي إلى المرض.

فصاحب القصة انتهى منذ سنتين من دراسة الصيدلة، ويعمل في مخبر للكشف والتحري في دماء الناس عن المرض الفتاك.. وخلال عمله بالتحاليل انتقل إليه الفيروس لأنه لم يتبع الاحتياطات بشكل كامل وكاف والتي توجب ارتداء القفازات في يديه أثناء العمل.

و لم يعلم هذا الشاب في بداية الأمر بإصابته، لكن وبعد ظهور أعراض معينة شك بأنه أصيب بالمرض وتأكد من ذلك بعد أن أجرى تحليلاً مخبرياً لعينة من دمه، وأعاد الكرة عدة مرات، والنتيجة كانت في كل مرة واحدة هي ظهور الفيروس في دمه.

أصيب الشاب بانهيار عصبي، وبدأ يهذي، ويتمنى المـوت، لأن المجتمـع كمـا يقول لا يرحم، ولديه أفكار مسبقة وخاطئة في بعض الأحيان حـول الإيـدز، تتلخـص في أنه لا ينتقل إلا عبر الشذوذ الجنسي، أو إدمان المخدرات.

وتضيف القصة أن وضعه الصحي حتى الآن جيد، لكنه وضعه النفسـي سـيء للغاية، فهو دائم الشرود، والكآبة تسيطر عليه، والتردد أصبح أهم صفاتـه، ووساوسـه لا تنقطع، وقد توقف عن العمل منذ عرف بإصابته.

إنها قصة مؤلمة حقاً.. فلا ذنب اقترفه هـذا الشـاب سـوى مسـاعدة المصـابين بالمرض اللعين.

آه.. يبدو أن الأقدار تكون في كثير من الأحيان مجحفة بحـق الإنسـان.. طبعـا لا أتحدث عن نفسي، فأنا عشت حياتي طولاً وعرضاً، وغصت في براثن الخطيئة حتى قمة رأسي، ولم يداهمني الإيدز كما فعل مع بطل القصة التي أتيت علـى ذكرهـا، إنمـا استجلبته لنفسي.

آه.. يا "ريمـون" اللعين، فـأنت مـن حمـل المـرض إلى جسـدي، وأدخـل إليـه الفيروس القاتل!! لكن ما ذنب "ريمون".. فلعله لم يكن يعلم أنه كان مصاباً به عندمـا .. ولعلي أنا من يتحمل وزر ذلك بسبب إدماني على المخدر.

آه.. لم أنته بعد من ترتيب الصحف والمجلات.. ولا شك أن صـاحـب المكتبـة هو في طريقه إلى هنا.

وأسرعت إلى إنجاز مهمتي.. لكن ما كدت أنتهي من ذلك حتى وقعت عيناي على صورة في آخر صحيفة كانت في يدي، وهي عبارة عن جمجمة كتب تحتها بالخط العريض الإيدز سبيلك إلى الهاوية..

آه.. يبدو أنها قصة أخرى من قصص مرضى الإيدز الواقعية.. وأخذت ألتهم السطور التهاماً..

وتتحدث القصة عن فتاة جميلة جداً، تواظب على زيارة الكنيسة، وهي ملتزمة من النواحي الدينية والأخلاقية.. تزوجت قبل عام من مواطن مقيم خارج البلاد.. وقد وصفتها الصحيفة بأنها ذات جمال أخاذ، ولا يبدو عليها أي توجه منحرف.. بل يبدو عليها المسلك القويم.

وفي يوم من الأيام أخبرها أ نه قرر العودة إلى بلاد الغربة، فلم تمانع، خصوصا وأن الزوج حاصل على جنسية تلك البلاد.. وجهز لها جميع أوراقها.. وفي السفارة، طلبوا منها شهادة خلو من الإيدز كي يمنحوها تأشيرة الدخول.. فذهبت إلى أحد مخابر تحليل الإيدز لتجري التحليل اللازم، معتبرة ذلك أمراً عادياً.. لكن النتيجة كانت صاعقة بالنسبة لها ولزوجها، حيث أثبت التحليل أنها مصابة بالإيدز.

وفي البداية لم تصدق.. لكن، ومن خلال التقصي والمتابعة والتحليل المخبري الذي أجري لزوجها.. تبين أن الزوج مصاب أيضاً.. كما تبين أنه كان يقيم علاقات جنسية عابرة مع عشرات الفتيات اللواتي كن يترددن على منزله بشكل مستمر في بلاد الغربة.

وتقول الصحيفة: إن الزوجين لم تظهر عليهما أية أعراض، ووضعهما الصحي عادي.. لكن الزوجة أصيبت بانهيار عصبي فور معرفتها بالإصابة، ولا زالت تعاني من اضطرابات نفسية وهلوسة وقلق.. كما أصيب الزوج بصدمة نفسية شديدة أدت به إلى الجنون، فنقل على عجل إلى إحدى مستشفيات الأمراض النفسية والعقلية.

إنها قصة تفيض بالألم.. فما ذنب هذه المرأة، لتدفع ثمن خطأ ارتكبه غيرها

- نهارك سعيد..

- نهارك سعيد..

كان صاحب المكتبة قد وصل لتوه.. ولحسن الحظ أني أكملت ترتيب الصحف والمجلات قبل وصوله بقليل.

- يبدو أنك لا زلت تقرأ؟

قالها متسائلاً.. فأجبته

- وماذا تريدني أن أفعل، والوقت لا زال مبكراً؟

قلتها وأنا أغلق الصحيفة مرتبكاً.. ثم أعدتها إلى مكانها بسرعة، لكي لا ينتبه إلى ما أقرأ.. خوفاً من أن يعرف حقيقة مرضي، بعد أن اقتنع بأني مصاب بالسرطان وسألني:

- ماذا كنت تقرأ

- أخبار اليوم.. وما استجد في العالم.

في الواقع لم أقرأ من أخبار اليوم خبراً واحداً.. بل إن هذه الأخبـار لا تشـدني إطلاقاً.. اللهم إلا ما تعلق منها بما تنشره الصحف عـن مـرض الإيـدز، بحثاً عـن أمـل جديد، لكن دون جدوى.. على الأقل حتى الآن.

بداية السقوط

مضت أيامي رتيبة لا جديد فيها، حتى من الناحية النفسية أخذت بالتحسن، حيث قطعت شوطاً لا بأس به في طريق التأقلم مع المرض القاتل الكامن في داخلي يتربص بي.. فقد سئمت الصراع معه، بعد أن حول حياتي إلى جرعة مريرة، ونجحت في تهميشه بالرغم من فقاعات الألم السوداء التي تنعقد وتطفو في داخلي من وقت لآخر.

هذا الصباح كنت أشعر براحة لم أشعر بمثلها منذ سمعت الكلمة القذيفة من الطبيب.. فمع قهوة الصباح التي تناولتها تذكرت طفولتي التي كنت أميل خلالها إلى الصخب وعدم الرضى، وأعكس ذلك من خلال حركاتي داخل البيت، حتى أن والديّ لم يسلما من تصرفاتي التي كانت تضج بالمرح والحيوية والأمل المشرق.

لكن، ومنذ تمكن الإيدز من دخول جسدي، فقدت المشاعر الحلوة.. فقدت الإحساس بالأمان.. فقد فاقت قسوة القدر حدود التصور، وقتلتني سخريته اللاذعة وحكمه الجارح.. وولد في داخلي غضباً ممزوجاً باليأس والقنوط.. غضب لا صوت له، لذلك لم يبرز ما أقاسيه من آلام جسدية ونفسية ممضة، غضب ولّد لدي رغبة بالانتقام من نفسي.. ومن المجتمع ومن والديّ اللذين لم ألق منهما ما يكفي من الرعاية، حيث كان كل منهما منشغلاً بشؤونه الخاصة وطموحاته، بعيداً عني.

وأتساءل: ما هو ذنب والدي فيما حصل لي..؟

إنه ليس ذنبهما.. إنه ذنب المجتمع الذي تمادى كثيراً في التوجه نحو الحرية، وتمادى في تقديس هذه الحرية، حتى وضع جميع السلبيات تحت عنوانها، ضارباً بعرض الحائط كل القيم الأخلاقية والدينية، واعتبرها من مخلفات الماضي الزائل!!

والأنكى من كل ذلك، أنه وضع قوانين تحمي الخطيئة!!

لا شك أن هذا المجتمع سائر في طريق الزوال.. في طريق الانهيار الحتمي.. فهو يحمل بذور هذا الانهيار في قيمه الجديدة.

حاولت الاختباء داخل نفسي، هرباً من الأفكار السوداء التي لا تريد أن تفارق رأسي المتعب.. المثقل بالقلق.. المنتظر أبداً لحظة الحسم.

أصدرت الحكم على نفسي الانقطاع عن الحياة وملذاتها.. انتقاماً من هذا الجسد الذي لم يشبع من المتع الزائلة، و لم يكلّ عن المطالبة بمزيد من المتعة انتقاماً من المجتمع الذي أعطاه الكثير من الحقوق، منتقصاً من قيمة الروح التي تسكن بداخله.

وجدت أعوامي الاثنين والعشرين تسير أمامي.. تصرخ في وجهي: هذا هو مصيرك.. الموت.. فقد تمكن المرض من كل خلية من خلايا جسدك. وانتزع منك حق تقرير المصير.. انتزع منك حتى حقك في الحلم.. فبماذا ستحلم وأنت على شفير الهاوية التي ستسقط فيها لا محالة؟؟!

فكرت مطولاً في كيفية الخروج من هذا المأزق الذي وضعني القدر بين براثنه.. وعشت في دوامة.. واستبدلت إدماني على المخدر بالإدمان على العقارات

المهدئة.. وحاولت الهروب بعيداً.. ولكن أين المفر؟ فقدري الأسود ساكن في كل خلية من خلايا هذا الجسد المنهك.

لم أجد سوى الرب ملاذاً مما أنا فيه.. لذلك غالباً ما تجدني أمام أيقونة السيد المسيح في الكنيسة المجاورة أذرف الدموع الحارة.. أحس بعدها بأن يداً حانية امتدت إلى داخلي، ومسحت على قلبي المنهك، ومنحته بعض الراحة التي يفتقدها.

لقد أصبح ارتياد الكنيسة عادة تلازمني صباح مساء.. فقبيل توجهي إلى المكتبة أعرج على الكنيسة، وأتوسل أمام صورة السيد المسيح وأمه السيدة العذراء، وأرجو المغفرة.. وفي طريق عودتي لابد لي من أن أمر عليها كذلك.. كنت ولازلت أشعر ـ بعيد خروجي من الكنيسة ـ بشيء من الهدوء النفسي.

ورغم هذا الهدوء الداخلي النسبي.. والاستسلام للقدر الذي يولده في داخلي، إلا أن هياجاً داخلياً، وغضباً ممزوجاً باليأس القاتل ينتابني من وقت لآخر.

فاتني أن أذكر أنني قبل أن أتناول قلمي.. وتحت وطأة الحرارة التي أصبحت لا تفارقني منذ أيام، أخذت حماماً بارداً، كما فاتني أن أذكر أني أدمنت الحمام البارد بالرغم من أن الجو شات بارد، لإطفاء اللهيب الذي أشعر بأنه يحرق جسدي.. ويبدو أن الحمام البارد، والتعرض للهواء بعده، جعلني أعاني من الزكام والسعال الدائم، بحيث لم تنفع معه أدوية الزكام الموجودة في الصيدليات، فقد جربت معظمها لكن دون طائل.

نظرت إلى ساعة يدي.. فقد تأخرت على المكتبة.. وارتديت ملابسي، وتوجهت خارجاً باتجاه الكنيسة، وبعدها ذهبت إلى المكتبة.

وفي المكتبة انتابني سعال حاد لم أجد سبيلاً لإيقافه إلا بعد فترة أحسست معها أنه انتزع روحي من صدري.. فسألني صاحب المكتبة، بعد أن لا حظ سعالي المزعج..

ـ ما بك يا سيد ميشيل؟

ـ لا شيء.. لا شيء يا سيدي.. إنه السعال الذي يرهقني من وقت لآخر بسبب الزكام.

ـ الزكام؟

ـ نعم.. الزكام..

ـ لماذا لا تذهب إلى الطبيب.. أو على الأقل تأخذ أحد الأدوية المضادة للسعال والزكام؟

ـ لقد أخذت العديد من أنواع الأدوية.. لكن هذا الزكام اللعين والسعال لا يفارقني.

ـ سأصطحبك اليوم إلى المشفى.. فماذا تقول؟

ـ المشفى.. لا.. لا أعتقد أن هناك ضرورة لذلك.

لقد كان وقع هذه الكلمة علي كالصاعقة.. كنت خائفاً من أن يعرف سري.. فقد يطردني من العمل لو عرف حقيقة مرضي.

وتكررت نوبات السعال.. بل تفاقمت حتى أصبحت كالعواء.. وقد تغير صوتي وأصبح محشرجاً.. وكانت نوبات السعال كثيراً ما تحرمني من سويعات النوم القليلة، مما جعل الإرهاق الدائم يدب في أوصالي، ويمنعني من أداء عملي بالشكل المطلوب.

كان صاحب المكتبة يشفق علي وهو يراني أذوي أمامه.. ولذلك أصر على مصاحبتي إلى المشفى بعد أن داهمتني نوبة سعال بصقت على أثرها دماً فاسداً.

ـ لابد من اصطحابك إلى المشفى.. والآن.

ـ لا أعتقد أن لذلك ضرورة يا سيدي..

ـ كيف لا تعتقد؟.. ألا ترى إلى ما آلت حالتك؟

قالها بغضب، ثم أردف يقول:

ـ سعال حاد، وحرارة مرتفعة منذ أكثر من أسبوعين، وتعب وإرهاق ودم فاسد.. وتقول لا ضرورة للمشفى؟

ومرت فترة سكون جنائزية، انتابتني خلالها التساؤلات المسكونة بالهواجس السوداء.. ترى هل حانت النهاية؟.. هل اقتربت لحظة الحسم؟.. هل قرر المرض المتربص في جسدي الإجهاز علي؟

وبدد شرودي سعالي الأقرب إلى العواء.. وصوت صاحب المكتبة الآمر

ـ هيا قم يا سيد ميشيل.. وأقفل المكتبة.. سنتوجه حالاً إلى المشفى.

ووجدت نفسي مرغماً على تنفيذ ما يطلبه مني.. ورضخت للأمر، وأقفلت المكتبة، وتوجهنا سوياً نحو المشفى..

تمنيت أن يكون المشفى بعيداً بعد السماء عن الأرض.. لكن وصلنا سريعا فقد كان قريباً جداً.

ـ نهارك سعيد أيها الطبيب

ـ نهاركم سعيد.. ماذا هنالك؟

ـ إن السيد ميشيل يسعل سعالاً حاداً

ـ تمدد يا سيد ميشيل على هذه المنضدة لأفحصك.

وتمددت على السرير، وأخذت يد الطبيب تجوب أنحاء جسدي، وخاصة صدري باحثة عن مصدر الداء.

ـ حرارتك مرتفعة جداً.. منذ متى هي كذلك؟

ـ منذ أكثر من أسبوعين.

ـ ألم تراجع طبيباً قبل الآن؟.. ألم تتناول دواء مخفضاً للحرارة؟

ـ في الحقيقة لم أراجع طبيباً.. لكني تناولت مخفضات للحرارة ومضادات حيوية متنوعة.. لكن بدون جدوى فقد بقيت حرارتي مرتفعة.

ـ افتح فمك يا سيد ميشيل..

نظر الطبيب داخل فمي ثم قال:

ـ إن فيه بقايا دم فاسد.. لذلك لابد من استقبائك في المشفى لإجراء التحاليل والفحوصات الفورية اللازمة.

ثم توجه إلى الممرضة الواقفة بجانبه وقال لها:

ـ آنسة ميري.. خذي عينة من دمه وأرسليها إلى المخبر

ـ حاضر دكتور.

بعدها عاد إلى الحديث معي وقال:

ـ أعتقد أنه السل.. لكن سنتأكد بعد ظهور نتيجة التحليل.. سأكتب لك دواء مهدئاً.. وأرجو أن تمر إلي غداً صباحاً.

ـ حاضر دكتور.

وأخذت الممرضة ـ التي تشبه جانيت في زرقة عينيها وصفائهما ـ عينةً من دمي بمحقن جديد.

غادرت المشفى وألم يعتصر صدري.. وآخر يطغى على نفسي صارخاً.. إنها النهاية يا ميشيل..

نظر إلى صاحب المكتبة مشفقاً ثم قال:

ـ لا داعي لعودتك إلى المكتبة.. وتستطيع أن ترتاح غداً أيضاً.. فيبدو أن حالتك متأزمة.

ونقدني كمية من النقود قبل أن يوصلني إلى منزلي بسيارته.

لم أذق طعم الراحة أو النوم في يومي وليلتي.. خاصة وأن سعالي الأشبه بالعواء لم يفارقني طيلة الليل.. كما طغت الحشرجة على صوتي لدرجة كنت أشعر معها وكأني أختنق.

النهاية

سأبوح بسري للطبيب اليوم.. هكذا قلت عندما فتحت عيني واستيقظت من نومي الذي لم يطل بحيث يمنحني شيئاً من الراحة.. ثم نهضت من سريري، وارتديت ملابسي، وصنعت فنجاناً من القهوة أملاً أن يمنحني قليلاً من النشاط.

خرجت من المنزل متوجهاً نحو المشفى، لكني وجدت نفسي أمام الكنيسة، وقررت الدخول.. وأمام أيقونة السيد المسيح جثوت على ركبتي، وأخذت أبكي بحرقة، وأجهش متوسلاً.. سامحني يا إلهي .. سامحني واغفر لي.. وخلصني من هذه الآلام التي حولتني إلى بقايا رجل.. وحولت شبابي إلى حطام.

ومن خلال دموعي انتابتني نوبة سعال.. فنهضت متثاقلاً، ثم توجهت إلى المشفى.. وهناك وجدت الممرضة ميري بانتظاري.

ـ لماذا تأخرت يا سيد ميشيل؟

ـ صباح الخير..

ـ صباح الخير..

وأعادت السؤال ثانية

ـ لماذا تأخرت يا سيد ميشيل؟

ـ آه.. أنا آسف.. فقد عرجت على الكنيسة.

ـ هذا جيد

ـ أين الطبيب؟

ـ إنه بانتظارك في غرفة المعاينة..

عندما رآني الطبيب داخلاً إلى مكتبه نهض بسرعة وتوجه إلي مرحباً

ـ أهلاً سيد ميشيل..

أهلاً سيدي..

ـ لماذا تأخرت..؟ خشيت ألا تأتي..

لا شك أن هناك أمراً هاماً.. وإلا فما هذه اللهفة التي يبديها الطبيب.. وتلك التي أبدتها الممرضة ميري عندما رأتني.. قلت في نفسي، وتذكرت قراري الذي اتخذته صباح اليوم بمصارحة الطبيب بمرضي فقلت:

ـ لقد عرجت على الكنيسة فتأخرت.. لكن المهم أني أريد التحدث إليك.

ـ خيراً يا سيد ميشيل؟

ـ إن مرضي ليس السل كما توهمت أيها الطبيب.

ـ فإذن؟

ـ إن مرضي هو الإيدز.. وأنا أعرف ذلك تماماً.. ويبدو أنه تفاقم بحيث أزفت ساعة النهاية.

ـ أوه، لا تبالغ يا سيد ميشيل..

ـ ماذا؟.. أبالغ؟ أتحداك أن تؤكد لي أنه ليس الإيدز..

ـ بلى إنه الإيدز.. لكن..

ـ لكن ماذا؟

ـ الإيدز مرض ككل الأمراض.

ابتسمت رغماً عني.. لكني قدرت للطبيب محاولته لمواساتي، أو تخفيف الألم عني

ـ لماذا تبتسم يا سيد ميشيل؟

ـ أدرك تماماً ما هو مرض الإيدز. فقد قضيت شهوراً طويلة في مطالعة كل ما يقع تحت يدي ويمت بصلة إلى هذا المرض.

ـ إن هذا جيد، لأنه سيجعل مهمتنا في علاجك يسيرة.. فالمرض لم يستشر بعد في جسدك.. وأنت تعاني حالياً من السل والزكام اللذين تسهل معالجتهما بالعقاقير والأدوية والمضادات الحيوية.

ـ هل صحيح أن المرض لم يستشر بعد في جسدي أيها الطبيب، أم تقول ذلك للتخفيف عني؟

ـ أؤكد لك ذلك.. وزيادة في التأكيد فإنك تستطيع العودة إلى المنزل لكن بشرط

ـ ما هو؟

ـ أن تراجعني خلال الفترة القادمة بشكل يومي.. حتى نتمكن من حصار السل ولا نتركه يتفاقم.

وبالفعل أخذت أتردد على المشفى بشكل يومي.. حتى نشأت بيني وبين الطبيب علاقة صداقة.. كما زودني بلائحة من الإرشادات توجهني في تصرفاتي اليومية.. وكان يركز في كل زيارة على الامتناع عن ممارسة الجنس مع أي امرأة كانت.. لكن أي جنس هذا الذي يتحدث عنه.. فقد عافته نفسي منذ زمن بعيد وصرت أشعر بالتقزز لذكره.

لكن، وبالرغم من ترددي المستمر على المشفى، لم أشعر بالتحسن، بل أحسست أني أصارع الموت وأناضل قوى الهلاك.

كنت أنظر كل يوم إلى المرآة لأرى جسدي المتهالك على الحافة الهاوية، وقد غارت عيناي، وامتص المرض دم وجهي، فبدا فاقع الاصفرار.. وشد لحمي على عظمي وبدا الموت يرفرف حولي بأجنحته السوداء المقيتة.. كما بدأ عوائي المزعج المفزع يرعبني، خاصة بعد أن أرى الدم الأسود الفاسد ينسكب من فمي بعد كل نوبة سعال تداهمني.

وفي يوم من الأيام استيقظت من النوم خائر القوى، وأحسست بعطش شديد يكاد حلقي يتفسخ لشدته.. حاولت النهوض فلم أفلح.. فقد كانت حرارتي مرتفعة جداً.

زحفت باتجاه الحمام، ومددت يدي الهزيلة باتجاه صنبور الماء، وأخذت أسكب الماء على جميع أنحاء جسدي، حتى استعدت شيئاً من نشاطي. ثم خلعت ملابسي المبللة وأخذت حماماً بارداً شعرت بعده أن حرارتي قد انخفضت قليلاً وأن نشاطي قد تجدد بشكل جزئي.

ارتديت ملابسي، وتوجهت إلى المشفى، وهناك سألت عن الطبيب، فقيل لي: إنه في غرفة المعاينة.

وفي غرفة المعاينة كان الطبيب منهمكاً بمعاينة مريض.. وعندما انتهى من ذلك تنبه لوجودي.

ـ آه.. نهارك سعيد يا سيد ميشيل.

ـ نهارك سعيد أيها الطبيب.

ـ ماذا هناك؟.. أراك مبكراً في القدوم إلينا هذا اليوم.

وشرحت للطبيب ما حدث لي صباح اليوم.. فطلب مني أن أتمدد على الطاولة ليفحصني.. وبعد أن أخضعني للفحص الدقيق قال:

ـ أنت بصحة جيدة.. لا تقلق.

ـ لكني لا أشعر بأي تحسن.. بل على العكس من ذلك أحس بأني في تراجع مستمر.

ـ اسمع يا سيد ميشيل.. إني لا أعرف كيف أصبت بالمرض.. ولا يهمني أن أعرف، لكن واجبي كطبيب يحتم علي أن أقول لك إن المرض قد استشرى في جسدك، ويبدو عليك الإرهاق الشديد والتعب نتيجة لذلك.. لذلك أعتقد أنه لابد من دخولك إلى المشفى والبقاء فيه حتى تتحسن حالتك..

ـ ماذا تقول؟

قلتها بدهشة وفزع.. فقد انتابني الإحساس بقرب النهاية..

ـ يجب أن تفهم بأني لا أقصد أنه لا أمل بالعلاج، فقد تكون هذه الهجمة ذات علاقة بالإيدز، وقد لا تكون، لكن يجب أن نعالجها ما استطعنا.. وفي المشفى ستجد من العناية ما هو كفيل بمعالجتها.

ـ أنا خائف.. خائف.. ساعدني يا إلهي..

ـ لا داعي للخوف، فوجودك في المشفى أفضل من بقائك خارجه في هذه المرحلة.

ـ سأوافق لكن بشرط

ـ شروطك مقبولة سلفاً.. وطلباتك ستنفذ طالما هي في مصلحتك.

ـ أرجو ألا تخبروا أحداً بمرضي.

ـ يجب ألا تشك بذلك يا سيد ميشيل.. فنحن لن نخبر سوى أهلك.

ـ أرجوك أيها الطبيب، خاصة أهلي ـ لا أريد أن أعلمهم بأمري.. على الأقل الآن..

ـ وأنا موافق

وفي اليوم التالي.. أحضرت كل ما أملك في هذه الدنيا.. محفظتي وأوراقي وقلمي وأشيائي الشخصية.. وبدوت كأني عازم على الرحيل فعلاً.. ولم أنسَ أثناء توجهي إلى المشفى أن أعرج على الكنيسة، حيث أديت بعض الصلوات، أملاً في أن تخفف عني ما أقاسيه.

وعندما وصلت إلى المشفى، أمر الطبيب بعزلي فوراً، ووضعي تحت المراقبة الصارمة، ومنع عني كل شيء حتى أوراقي وقلمي.. لكنه رضخ في النهاية لرجائي فترك لي القلم والأوراق.

وأخذت حالتي تزداد سوءاً مع الأيام.. وكان الطبيب يدرك مقدرتي على الاستيعاب، فيصارحني بتفاصيل مرضي.. وما يطرأ علي من تطورات.. خاصة وأني كنت أرصد كل كبيرة وصغيرة من التغيرات التي تطرأ علي، وأبلغها للطبيب بشكل يومي.. فإن لم أنج من هذا المرض فقد أتمكن من المساعدة في نجاة مريض آخر من خلال ما أقدمه من معلومات دقيقة.. عسى أن يكون في ذلك تكفير للخطايا التي اقترفتها وأدت بي إلى ما أنا فيه.

وفي أحد الأيام وبعد أن غزت جسدي حكة شديدة.. لاحظت دماً وقيحا على ثيابي الداخلية.. فبحثت عن مصدره لأجد أن عضوي التناسلي قد امتلأ بالحبيبات الصغيرة.. ومع الأيام تطورت هذه الحبيبات إلى تقرحات كبيرة وعندما أخبرت الطبيب قال:

ـ إنه سرطان الجلد يا سيد ميشيل مصحوب ببعض الإنتانات.

ـ سرطان الجلد؟

ـ لكني لا أشعر بأي ألم في عضوي.

ـ هذا طبيعي.. فإن نسبة كبيرة من السرطانات لا تسبب أي ألم.

وفي الأيام التالية انتشرت البثور في أماكن متعددة من جسدي وازدادت الحكة، كذلك ازداد عدد نوبات السعال التي تداهمني، وتقاربت الفترات الفاصلة بينها.. وتكاثر الدم الأسود القاني الفاسد الذي كان يسيل من فمي مع كل نوبة سعال تداهمني.. وأصبحت أشعر بالاختناق.

كنت متيقناً من أن النهاية قريبة جداً.. بل هل أقرب من لمح البصر.. لكني مستسلم لقدري الذي لا مفر منه.. والذي عشت لفترة طويلة أنتظره بألم ورعب.. لكن إحساساً باللامبالاة سيطر علي، وكأن هذا الجسد السائر في طريق الفناء.. الواقف على تخوم الموت ليس جسدي.. وكأن هذه الروح التي تستل مني ببطء شديد ليست روحي وذلك بالرغم من الآلام المبرحة التي لم تفارقني طيلة فترة وجودي في المشفى.

كان الطبيب في كل مرة أقابله يحاول حقني بجرعة من الأمل الزائف، بهدف التخفيف مما أعانيه؛ وذلك من خلال حديثه عن تطور الطب والعلم، وتأكيده بأنهما قد تمكنا من معالجة وشفاء العديد من الأمراض المستعصية والخطيرة.. وأن الأمل لازال موجوداً في اكتشاف دواء يقضي على فيروس الإيدز اللعين.

وكان في كل صباح يحمل إلي قصاصة من صحيفة أو مجلة فيها خبر عن فتح علمي يبشر بالخير في هذا الصدد، ويبعث الأمل في النفوس السائرة نحو الزوال.. إلا نفسي التي أبت إلا أن تصدق حقيقة واحدة.. الموت قادم لا محالة ولا مناص من مواجهته والاستلام له.

نهضت على نوبة من السعال الحاد.. شعرت بأني أختنق.. وكأن يداً خفية تضغط على رقبتي، بحيث لا أستطيع التنفس.. تدفق الدم الذي ازداد سواداً وقتامة.. وازدادت كميته.. فصرخت مستنجداً.. لقد وصل الآن من كنت أنتظره.

رميت القلم واستلقيت على السرير.

وأنهى الطبيب المعالج الورقة الأخيرة من هذه الوريقات فكتب يقول:

لقد ظل ميشيل يصارع الآلام المبرحة التي انتابته.. وأسرعنا نحن بدورنا في عملية إسعافه، لكن دون جدوى، فقد اهترأت رئتاه.. ولم نستطع وقف النزيف فيهما.

واستمرت آلامه لعدة ساعات، حتى قضى اختناقاً بالدم السائل من رئتيه.. بحثت في أوراق ميشيل، لأجد عنوان أهله، ورقم هاتفهما، فاتصلت بهما، وطلبت إليهما أن يقدما إلى المشفى لاستلام الجثة.

الفهرس:

١ ـ الإهداء ٣

٢ ـ تمهيد لابد منه ٤

٣ ـ الكلمة القذيفة ١١

٤ ـ الذكريات المؤلمة ١٥

٥ ـ لقاء ميشيل وجانيت ٢١

٦ ـ العرض الصاعق ٢٨

٧ ـ الأمل ٣٧

٨ ـ قرار الرحيل ٤٣

٩ ـ الرحيل ٤٧

١٠ ـ في البلدة ٥٢

١١ ـ أنا أعمل ٥٦

١٢ ـ بعض قصص المصابين (بعض من مصابي الإيدز) ٦١

١٣ ـ القصة الفاجعة ٦٦

١٤ ـ بداية السقوط ٧١

١٥ ـ النهاية ٧٩

١٦ ـ الفهرس ٨٨


.. أعيدي الرشاقة ..
إلى جسمك بعد الولادة
تمارين رياضية
أغذية صحية
أساليب وتقنيات حديثة
جيليان فلتشر
مؤسسة الإيمان
دار الرشيد
سلامة ظهرك
مجموعة من التمارين المتطورة لسلامة الظهر
تحقيق د. عبد المعطي قلعجي
تذكرة داوود في العلاج بالأعشاب
مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان
دار الرشيد
دمشق - بيروت